بكارة....؟!

رقم الإيداع

22499/2020

الترقيم الدولي

978-977-6852-25-9

بكارة ... ؟!

رواية اجتماعية معاصرة

ـ 1 ـ

بيسان أحمد

الإهداء

إلى الأنثى الجميلة التي خلقت كصورة

حددت مصيرها الدنيا التي وضعت لها قيود شائكة فكانت الصورة بيضاء وسوداء لتبدأ مع أسرتها فجعلوا من صورتها ألوان حطمت كيانها بعدما استلم بعض الرجال الصورة ومزقوها وداس عليها الأقرب لها وكأنهم ملائكة الأرض وهي الشيطان الرجيم.

بيسان أحمد

عندما تريد أن تختار عدوك فليكن عدواً راقياً.

له ضمير.

لا يكذب.

يقول ويفعل.

وإن انتصرت عليه

واعترف بالهزيمة أمامك ورفع راية الاستسلام ومضى في سبيله ليتعلم وتعلم أن العداء وتحدي تكافئ وعدل ومساواة بين الحقيقة والباطل كخيط رفيع عنوانه ظالم ومظلوم.

Bisan Ahmad

الفصل الأول

ظالم ومظلوم

الظالم نراه مظلوم وندور حول الضحية لنعلم إن كانت جارت على الظالم لنضع بصمة العار على الجبين ونكتب باليقين أن من قتلت جنت على نفسها بفقدانها أغلى ما تملك قبل أن تتحدث قبل أن تقول كالبركان الثائر الذي جعل منها طائر فقد جناحه ولم تستطع أن تطير في السماء العالية بعد أن أنقضّت عليه مخالب الاغتصاب والنهاية...!

ـ صباح الخير دكتورة صباح

ـ صباح النور دكتورة سمارة

ـ أراكِ متعبة ما رأيك أن تذهبي إلى منزلك وأنا سأهتم بكل شيء...؟

ـ أفكر بفتاة أحزنني جداً ما حصل معها...؟

ـ ما بها؟ ومن تكون...؟

ـ فتاة في عمر الخامسة عشر من عمرها أتى بها والدها إلي مع أشقائها الثلاثة لفحصها ن كانت عذراء أم فقدت عذريتها.

ـ وما هي القصة بالضبط.

ـ دخل إلى العيادة رجل بعمر الستين وهو غاضب تعتلي ملامحه السخط والقلق ومعه فتاة ينتظر في غرفة الاستقبال ثلاثة شبان وعلمت بعدها أنهم أشقائها وأنها أصغر فرد في هذه العائلة.

ـ السلام عليكم دكتورة.

ـ وعليكم السلام تفضل بالجلوس.

جلس والد الفتاة وهو عاقد حاجبيه والقلق واضح بنظراته وصوته يرتجف وكلماته تخرج من حنجرة مخنوقة بصوت خافت وهو لا ينظر إلي مباشرة يطقق رأسه إلى الأرض وقال.

ـ أريدك أن تفحصي أبنتي أن كانت فتاة أم امرأة.

ـ كم عمرها

ـ خامسة عشر عاماً

ـ هل هي متزوجة وأين زوجها.

ـ لا هي كانت مخطوبة وتطلقت من دون زواج رسمي

ـ أن كانت انفصلت عن خطيبها...؟ هل مارسا العلاقة الجنسية الكاملة.

ـ نعم ولكن أريد أن أتأكد من أمرها...!

ـ أريد أن أسمع ما هو الأمر الذي أتيت بسببه إلى العيادة.

أنا طبيبة نسائية وواجبي أن أعلم كل شيء وبصراحة أشعر أن هناك أمر ما تخفيه وكن صريحاً معي وسأساعدك بقدر ما أستطيع إن كان ما تريده لا يخالف القانون.

ـ ابنتي حامل بالشهر الرابع وأريدك أن تجهضينها وبأسرع وقت.

ـ ماذا تقول؟ الطفل شرعي وما هي القصة...؟

إلى الآن أنت لا تقول الحقيقة مرتبك حديثك غامض تحدث بسرعة لدي مرضى ينتظرون في الخارج في غرفة الاستقبال والوقت يمر ولم افهم منك شيء وأشعر أن هناك أمر غامض تخفيه تحدث ولن أخبر أحد

ـ استفزني بغموضه وحديثه الغير مفهوم تارة أريد أن تفحصي أبنتي وتارة أبنتي حامل ويريد إجهاضها تحدثت إليه بانفعال وأعطيته الأمان وبعد جدال لثلث ساعة تحدث وقال الحقيقة.

ـ ابنتي كانت مخطوبة لأبن عمها وهو يعمل سائق حافلة تنقل الركاب بين المحافظات لنفس الشركة التي أعمل فيها ومنذ كان صغيراً كان هناك أتفاق على أن يكون زوجاً لأبنتي الوحيدة.

ـ وهذا الاتفاق من دون أخذ موافقة أبنتك...!

ـ نعم وعندما بلغت الخامسة عشر تقدم لخطبتها لكن في فترة الخطوبة للأسف غدر بنا ونحن في غفلة ولا علم لنا بما حصل.

ـ ماذا فعل...؟

ـ ذات يوم من الأيام

ـ جميلة أفتحي الباب.

لا أستطيع فتح الباب لا يوجد أحد من عائلتي سوى والدتي وهي نائمة.

ـ أفتحي الباب أريد فقط أن أراكِ اشتقت لك كثيراً.

ـ قال لي والدي أن لا أفتح الباب لأحد وخاصة أنت إلا أن كانوا موجودين هو وأشقائي.

ـ ولكني خطيبك ولست بغريب عنك أنا ابن عمك ألا تريدين رؤيتي...؟

ـ لا أريد، إن علم والدي وأشقائي سوف أعاقب على رؤيتك وهم غير موجودين.

ـ لن أدخل إلى المنزل فقط سأراكِ وأذهب وهذا وعد.

ـ ارتفعت لدى جميلة هرمونات السعادة (هرمون نورإبينفزين) ووسوس لها أن تفتح الباب الذي يقف وراءه بلهفة خطيبها وابن عمها الذي تحبه ويداها ترتجفان من الخوف والسرور وعيناها تلمعان تريد أن تراه والخجل والارتباك أصابها ولكن أغمضت عيناها ووضعت يدها على الباب وفتحته بسرعة.

ـ انظر، لا تدخل لأن أمي نائمة وإن استيقظت ووجدتك في المنزل ستخبر والدي وأشقائي.

أمسك يدها بلطف وقبّلها وأغلق الباب وأدخلها إلى غرفتها وجميلة مستسلمة له كلياً لا تتحدث.

ـ وفي هذا اليوم فضّ بكارتها!

ـ نعم وهي كما فحصتها القابلة القانونية حامل ولكن عقلي يريدها أن لا تكون حاملاً.

ـ وأين المشكلة هو خطيبها ولم تقم بالزنى أو الحرام.

ـ ليست هنا المشكلة!

ـ أين هي المشكلة إذاً...؟

ـ هذا الأمر تكرر وابنتي لم تتزوج ابن عمها الذي تحمل طفله في أحشائها.

ـ هل تزوجت رجلاً آخر...؟

ـ لا ذات يوم من الأيام وقبل أن نعلم أنه فعل ما فعل هو وهذه الغبية كان لديه سفر على طريق دمشق حلب وتعرّض لحادث سير ومات.

ـ رحمه الله...

ـ ولكن جميلة لم تخبرنا أنه مزّق عذريتها وجعل منها حبلى لخوفها من ردّة فعلي أنا وأشقائها.

ـ وأنت تريد أن تقتل هذا الطفل.

ـ نعم لأنه سيجلب لنا العار. لو كانت تزوجته وبعد حفل الزفاف حملت منه فالأمر هنا طبيعي ولكنها الآن حامل ونريد أن نتخلص من هذا الجنين.

ـ سأقوم بفحصها لأتأكد ربما هي ليست حامل.

ألزمني ضميري يا سمارة أن أفحص الفتاة لربما تكون ليست حامل وأنقذها من هذا الأب الذي لا يعرف قلبه الرأفة. كان في حديثه ونبرة صوته كره وشر وحقد وكأن الفتاة أخطأت وفعلت أمراً لا يغتفر.

ـ هل هي حامل دكتورة...؟

ـ (بصوت هادئ) نعم في شهرها الرابع والجنين صبي وفي بدايات الشهر الخامس.

انتفض وجهه من الغضب ونظر لابنته نظرة سخط وقال لها بعدما أمسكها من شعرها وشدها وخرج من غرفة الكشف والفتاة كانت تنظر نظرة بريئة وتقول: أنقذيني لا تدعيهم يقدمون روحي لمحاكمة غير عادلة.

ـ ماذا فعلت دكتورة صباح...؟

وقفت صامتة لا أستطيع فعل شيء ولكن قلبي تحطم من نظرة عيناها. شاهدتها ميتة لا محالة.

خرج والدها وهو يمسكها من شعرها وهي تقول له اتركني اتركني لم أفعل شيء.

وبعدها بعدة أيام اتصلت إلى منزلها وعلمت بما حلّ بها.

ـ ماذا حصل؟

ـ الذي حصل لا يتوقعه إنسان ولا يخطر على بال أحد.. جميلة ضحية التخلّف وأسيرة لعائلة لم تختارها لقدر محتوم خلقت لتحاسب فقط لأنها أنثى لأنها فرّطت بأغلى ما تملك في جسدها وهو غشاء البكارة.

رغم أهمية الغشاء هذا عند الغرب خاصة وفي العالم ولكنه في القرون القديمة والوسطى والآن أسميه غشاء الظالم والمظلوم لأن كل أنثى فرّطت به وتمزّق عندها حكم على مصيرها بالدمار والشتات إلى آخر يوم في عمرها في مجتمع ينظر للمرأة على أنها جسد وشهوة وغشاء بكارة لأنها ثورة جنسية يخرج في شوارعها وساحاتها الثوار يهتفون ويلقون

الشعارات التي تحمل المعاني والمبادئ ولكن دون فائدة لأنهم جعلوا من قيمهم سلاح ذو حدين.

طرق الباب ودخلت الممرضة.

ـ دكتورة صباح.

ـ تفضلي.

ـ هناك مريضة حالتها غريبة وهي حامل ورفضت أن تتحدث أو أن يكشف عليها فحص إسعافي وطلبتك شخصياً تريد لقاءك.

ـ هيا لنراها.

ـ ومتى ستكملين لي ما حصل مع جميلة...؟

ـ فيما بعد يا سمارة تعالي معي لنشاهد هذه السيدة وماذا تريد...؟

خرجت مسرعة لغرفة الاستقبال ومعها مساعدتها الدكتورة سمارة والممرضة.

ـ مرحباً.

ـ أهلاً دكتورة ألا تذكريني.

ـ لا ولكن كأني رأيتك من قبل.

ـ أنا نجوى أتيت إلى عيادتك قبل سنتين وقمت بفحصي.

ـ هل كنت حامل أم ماذا...؟ لأني لا أنسى مريضاتي الحوامل في ذاكرتي لهم خانة خاصة.

ـ لا لم أكن حامل ولكن أتيت قبل زفافي بأسبوع وفحصت لي عذريتي لأطمئن أنها سليمة.

ـ نعم تذكرتك والآن ما المشكلة، غشاءك كان سليماً مع ندبات وبعض التمزقات.

ـ تزوجت والآن حامل في شهري الثاني ولكن زوجي لا يريد الطفل ويريد أن ننفصل وهو غاضب كثيراً وقام بضربي وشتمي.

ـ ولكن لا يجوز الانفصال وأنت حامل كما تقولين ولا يحق لنا أن نجهض الجنين. ووالده أين هو؟

ـ أعلم ولكنه طردني إلى منزل أسرتي وأنا نادمة حقاً نادمة ولا أريد هذا الطفل.

ـ على ماذا أنت نادمة...؟

ـ على الكذب والخيانة.. على كل دقيقة عشت فيها مشاعر مزيفة مع زوجي.. على علاقاتي الجنسية السابقة مع رجل أحمق أودى بي إلى الهاوية والقلق والإهانة التي أستحقها لأني بلهاء أصبحت كالمكنسة أحاول تنظيف الماضي والأيام، حتى ضميري تخلّى عني لم يعد يأت إليّ كل يوم ليوقظني من غفلتي.

ـ انتظري واهدأي، أريد أن أعلم ماذا حصل...؟

وجهك شاحب وعيناك متعبة سأفحصك أولاً وترتاحي وبعدها تخبريني لم كل هذا الانفعال؟ ارتاحي ولا يحق لك معاقبة نفسك حتى لو أخطأت لأن هناك عقاب إن كنت ارتكبت أخطاء القدر والدنيا لا تترك أحد إلا وعاقبته على ما فعل بحق نفسه وبحق غيره وهناك من خلق هذا القانون المدروس بشكل لا يستطيع أحد الهروب منه إن أيقظه ضميره أم لا، والندم سمة من سمات الشعور بالذنب والطيبة. تماسكي وكوني قوية.

وطلبت من الممرضة مساعدتها لتدخل غرفة الإسعاف لفحصها.

نجوى فتاة في عمر الخامسة والعشرون عاشت حياة بائسة مع زوجة أبيها التي لم تعاملها مثل أولادها، كانت قاسية عليها إلى حد جعل من نجوى فتاة مهملة هاربة من بئر مظلم لبئر

آخر، لم تسقط سهواً بل بإرادتها، تحمل بين طيّات حياتها جروح وأسى وماضٍ حزين.

ـ يبدو أنها مرهقة، هناك كدمات على الظهر وبقع زرقاء اللون..!

ـ يجب أن أعلم ما قصتها وما سبب هذا الألم في حياتها؟

ـ لديها ضعف في الكلس يبدو أنها لا تأكل.

ـ هل ظهرت باقي التحاليل...؟

ـ بعد نصف ساعة.

ـ ولكن لماذا كل هذه التحاليل دكتورة..؟

ـ أنا أشك بالأمر وللضرورة والتأكد من شكوكي إن كانت صح أم خطأ، فاطلبي من المخبر أن يستعجلوا بالنتيجة.

ـ ذاهبة إليهم.

دخلت الدكتورة صباح إلى غرفتها تنتظر التحاليل وهي قلقة جداً أن يكون ما خطر ببالها صحيح أو أن يكون خطأ، وبعد مرور ثلث ساعة جلبت الدكتورة سمارة التحاليل للدكتورة صباح ودخلت إليها إلى الغرفة. طرق الباب بقوة أربع دقات متتالية.

ـ أدخل تفضل.

فتحت الباب الدكتورة سمارة وهي صامتة لا تتحدث تعتلي ملامحها الدهشة والحزن.

ـ ما بك دكتورة سمارة.

ـ التحليل دكتورة لم أتوقع ما قرأت في النتيجة...!

ـ أعطني التحليل.

أخرجت الدكتورة صباح التحليل من الظرف وقرأت النتيجة.. مزقته وذهبت مسرعة لنجوى للحديث معها.

وعلى ممر المشفى وهي برفقة الدكتورة سمارة.

ـ لماذا مزقت النتيجة...؟

ـ هناك خطأ.

ـ لا أظن، ولا مرة أخطأ المخبر في تحليل.

ـ والمشكلة أن حالة الجنين جيدة.

ـ هيا سنعلم بكل شيء من نجوى.

ـ مساء الخير يا نجوى.

ـ مساء النور دكتورة.

ـ كيف حالك الآن...؟

ـ أفضل وأشكر لطفك وتفهمك للأمور الصعبة التي أمر بها.

بدأت نجوى بالبكاء، ذرفت دموعاً طعمها مراراً وقلبها الموجوع يعتصر أسفاً وندماً.

ـ لم البكاء يا نجوى...؟

ـ أريد أن أقول لك أمر مهم ربما كان لديك الحل والنصح.

ـ وأنا جاهزة ومستعدة لأسمع، تفضلي.

ـ بعد زواجي بفترة شهرين رن هاتفي النقال.

ـ ألو.

ـ ألو نجوى.

ـ من أنت.

ـ أنا منير ألم تذكريني.

عرفته ولكن تقصدت أن أتجاهل معرفته.

ـ ومن يكون...؟

ـ هو صديق قديم كنت على علاقة معه.

ـ وما المشكلة إن اتصل فيك، هو صديق وعلاقتكم كأصدقاء فقط ولا حرج ولا عيب في الموضوع.

ـ لا لم تكن علاقتنا كأصدقاء فقط، كانت العلاقة أعمق.

ـ لا تخجلي من قول الحقيقة فأنا لست جلاداً ولن أجلد هفواتك القديمة، تحدثي من دون أي حدود أو قيود.

ـ كانت تجمعنا علاقة جنسية قوية.

ـ هل هي حب..؟

ـ لا مجرد متعة لا أكثر، ورغم أنني أخبرته أنني تزوجت وانفصلت عنه ولم أعد أقابله هو والكثير من أصدقائي.

ـ مممم أكملي.

ـ كنا مجموعة من الشبان نمارس العلاقة الجنسية وقادتنا شهواتنا إلى الفواحش بكل تفاصيلها، ولكن عندما ارتبطت بشفيق ابتعدت عنهم حتى أنني غيرت رقم هاتفي وأخبرتهم أنني سأتزوج وأنهيت علاقتي بهم.

ـ هذا جيد ولكن ماذا يريد....؟

ـ عندما أنكرته على الهاتف عاد واتصل ألف مرة. قمت بحظر رقمه ولكنه أرسل الرسائل. كنت أقرأ الرسالة وأحذفها لكي لا يشاهدها شفيق لكثرتها.

وفي هذا اليوم من شدة إصراره على مراسلتي أغلقت هاتفي وأبقيته مغلقاً لثلاثة أيام ولكنه أتى إلى منزلي بعد أن خرج شفيق لعمله وهذا ما أدهشني كيف علم برقم هاتفي وعنوان منزلي...؟

ـ من سيبحث عنك سيجدك لا محالة.

ـ نعم كان يتقصى عن أخباري ويلاحقني وأعطته رقمي زوجة أبي وهذا ما علمت به فيما بعد.

ـ زوجك أبيك شريرة رغم أن هناك أمهات ربت وجعلت من أولاد غيرها أيقونة ومثال التربية والأخلاق ولكنها من الصنف الحاقد والبغيض بالصفات.

ـ نعم كل ما حصل في حياتي لها يد في تمزيقه بكل مراحله.

ـ وماذا كان يريد منك عندما أتى إلى منزلك...؟

ـ يريد أن نعود كما كنا نمارس العلاقة الجنسية.

ـ يبدو أنه معتوه في عقله.

ـ نعم، ولكن أنا رفضت صدقاً أنا لا أكذب. لأنني كنت سعيدة جداً مع شفيق ولا أريد خيانته.

ـ دموعك تقول الحقيقة يا نجوى أنا لم أكذبك إلى الآن.

ـ طبعاً رفضت ما يريد وطلبت منه أن ينساني لأني متزوجة ولا أريد خيانة زوجي لأني أحبه وأريد أن أعيش حياتي من دون منغصات ومشاكل، ولكنه أصر على ممارسة الجنس معي ومن دون شروط.

ـ يا نجوى الآن أنت متزوجة وستشعرين بالسعادة الأكبر والمتعة التي لم تعيشيها معي من قبل عندما كنت فتاة وغشائك كان السبب بعدم شعورك بالحميمية التي ستشعرين بها الآن.

ـ لا أريد يا منير قلت لك أنا أحب زوجي ولن أخونه لا معك ولا مع غيرك.

ـ اسمعوا يا معشر البشر من يتكلم عن الوفاء والحب أنت يا نجوى من تريد أن تتحدث عن الأخلاق ولا تفرط بشرفها لكل عابر في حياتها.

ـ لم أفرط بشرفي يا قذر اصمت واخرج من منزلي الآن.

ـ كيف لم تفرطي وأنا أعلم تفاصيل جسدك الجميل؟ وكم هو مثير وكم رجل تذوق طعمه غيري؟ أنا أعرفهم هل نسيتي أم ذاكرتك لم يعد لها مكان لعددهم الكبير.

ـ اخرس واذهب من هنا لا أريد أن أراك وكما قلت لك إنساني.

ـ يا بلهاء لن تنتهي بهذه السهولة مني لأني سأخبر زوجك بعلاقتنا.

ـ لا أرجوك لا تخبره.

ـ إذاً ستنفذي ما أريد من دون أن تقولي لا.

ـ تريد مالاً سأعطيك.

ـ لا أريد مالاً، أنسيت أنني ابن رجل ثري ويعطيني ما أريد كل يوم.

ـ ماذا تريد...؟ لا تقل أنك تريد أن نعود كما كنا.

ـ (مقهقهاً بفرح) أجل.

ـ تباً لك أيها اللعين أنت حقير وسافل ومنحط.

ـ وأنت ماذا الملاك البريء الذي ينشر الأخلاق...؟ لا أريد النقاش سأنتظر اتصالك لتحديد موعد.. باي باي.

ـ وأنت بعد أن هددك بالقول لزوجك مارست معه العلاقة الجنسية.

ـ نعم عدنا كما كنا يأتي إلي وأذهب إلى منزله ثلاث مرات في الأسبوع.

ـ أكملي.

ـ بدأت أتعب، ضميري دمّرني من اللوم وخاصة أن زوجي شفيق كان مثال الرجل الخلوق والمحترم وطيب في المعاملة.

ـ كان عليك أن تكوني أقوى من رغبات منير.

ـ كيف؟ وهو يهدد بإخبار زوجي. منير سيفعلها لأنه رجل بلا وجدان.

ـ والآن لماذا لديك كدمات ضرب ومتعبة هكذا...؟ وما سبب طردك من منزل زوجك؟

ـ زوجي ضربني وطردني من المنزل وأنا حامل.

ـ عدنا للبكاء.. الحزن لن يفيدك أنت حامل وصحتك أهم من التفكير بما حصل..؟

ـ ولكنه يقول لي أن هذا الطفل ليس بطفله من دون أن يتأكد.

ـ كيف، هل أجرى تحاليل؟ أم منير أخبره عن علاقتكم؟

ـ لا، منير لم يخبره شيء على العكس، منير اختفى فجأة ولم أعد أراه، أظنه سافر.

ـ مممم لا، هناك أمر غامض في الموضوع، لا تخفي عليّ شيء، تحدثي بكل صراحة.

ـ لا أعلم كيف قال لي أن هذا الطفل ليس طفله، ظننته سيفرح عندما أخبره.

ـ ربما حملت من منير وعلم منه.

ـ لا، أنا متأكدة أنه لا يعلم من منير ولا أعلم إن حملت منه أو من شفيق.

ـ عدنا للأخطاء وضحيتها هذا الطفل الذي في أحشائك وأنت طبعاً وبكل تأكيد لن تقولي لزوجك أنك حامل من غيره.

ـ ولكن منير لم يخبره لأنه لم يتهمني بالخيانة إلا عندما أخبرته أنني حامل.

ـ هناك شيء غريب، أريد رقم زوجك، يجب أن أعلم منه ما الأمر الذي جعله يتهمك بالخيانة مع إنكاره للطفل...؟

ـ أرجوك لا تخبريه بما قلت لك.

ـ لا لن أخبره، أريد رقمه والآن لديك تحاليل أخرى، هناك أمور لربما كانت خطأ في التحاليل وعلينا أن نتأكد من سلامة الجنين.

اتصلت الدكتورة صباح بشفيق وطلبت مقابلته بأقرب وقت ممكن، وفي اليوم الثاني عند الساعة الحادية عشر صباحاً حضر شفيق إلى المشفى لمقابلة الدكتورة صباح وهو متلهف ليعلم ماذا تريد منه...؟

ـ صباحك سعيد.

ـ صباحك أسعد يا شفيق.

ـ كيف علمت أنني شفيق...؟

ـ من ملامحك ولهفتك ودخولك عليّ الغرفة وأنت مندفع.

ـ يبدو أنك لست طبيبة فقط.. محللة نفسية.

ـ هذا نكتسبه من الخبرة مع الناس.. تفضل لنتحدث قليلاً.

ـ ادخلي في الموضوع، لا أحب المقدمات والبدايات للوصول لما تريدين أن تعلميه وتقوليه.

ـ جيد، لماذا طردت زوجتك نجوى وقمت بضربها وإهانتها...؟

وقف غاضباً وأدار ظهره ليخرج من الغرفة وملامحه امتعاض وألم.

ـ توقف، لن تذهب حتى أعلم ما حصل...؟

نظر لها نظرة ساخطة ورفع حاجبه الشمال وحدّق بها وقال:

ـ لأنها خائنة.. لا أريدها.

ـ وكيف علمت أنها خائنة؟

وهو غاضب، ورفع صوته في وجهها:

ـ لا دخل لك في حياتي الخاصة، أنت تضربين الجرح بالسوط وهو يؤلم.

ـ ولكن الجرح المؤلم تسبب بأذيتك وأذية من حولك، لا تخف تحدّث ولن أخبر أحداً بما ستبوح به.. تأكد.. أخرج ما بداخلك من أوجاع.

جلس على الكرسي ورأسه على الأرض وتحدث بنبرة صوت منخفضة:

ـ أنا لا أنجب.. عقيم.. فكيف تم الحمل....؟

أصاب الدكتورة صباح الدهشة وسألته:

ـ كيف علمت أنك لا تنجب...؟! ربما أنك مخطئ.

ـ لا لست مخطئاً، أنا عقيم وقلبي عقيم وعقلي وإحساسي وكل ما أمرّ به في حياتي عقيم.

ـ هيا أخبرني.

ـ قبل زواجي من نجوى كنت على علاقة حب جميلة ورائعة مع فتاة ذكية وطيّبة.. تبادلنا المشاعر والثقة والاحترام وأيضاً العلاقة الجنسية..

سلمتني أغلى ما عندها لأنها وثقت بي وكانت تراني كل ما هو جميل في الحياة.. كنا كزوجين ونحن لم نتزوج.. استأجرت لها شقة كنا نتقابل فيها واستمرت علاقتنا لأربع سنوات تقريباً.

ـ ولماذا لم تتزوجها...؟

ـ لأني أحمق ولا أستحقها لأني شعرت أنها الأفضل بعد أن خذلتها وعلمت أن عدالة الله على الأرض أقوى من غروري ونرجسيتي.

ـ جيد أن ضميرك بدأ يوزع أحكام على عقلك وإحساسك.

ـ وبمرور الأيام تعجبت من أمر وأصبح الهاجس في قلبي يخبرني أن هناك أمر ما خطأ وعليّ أن أتأكد منه.

أنا أمارس معها العلاقة الجنسية الكاملة ولم تحمل مني رغم أنني لا أحتاط لهذا الأمر.

ـ ولكن في بعض الحالات لا يتم الحمل بسرعة.

ـ ولكن يا دكتورة الشكوك دخلت في عقلي وذهبت أنا وهي إلى الطبيب وقمنا بالفحوصات الخاصة والنتائج أظهرت أن حنين ليست عقيماً وأنا عقيم.

اسودّت الحياة في قلبي وكسر الأمل مع صمتي.. ذهبت لعدة أطباء وجميعهم قالوا نفس النتيجة.

ـ وماذا عن حنين لم تركتها...؟

ـ يا ليت الزمان يعود لأتزوجها لأنها علمت أنني عقيم ولم تتخلّى عني وتخلّت عن حلم كل فتاة أن تكون أماً.

ـ وأنت تخلّيت عنها.

ـ أجل وللأسف عاقبني القدر بزوجة خائنة.. في نظري الحب مختلف عن الزواج.. طعنت بها وتخلّيت عن إنسانة وفية وصادقة ومحبة لي.

حبي لذاتي جعل مني إنسان بلا روح لا أشعر.. لا أندم.. لا أفهم.

والآن قد شعرت بالندم ولأول مرة بحياتي كان عقلي يحدثني ويقول لي دائماً: حنين فتاة ستخونك بالمستقبل.. ستصوّب بسهامها على ظهرك وتغدر بك لأنها تخلّت عن بكارتها وهي ليست زوجة شرعية.. لأنها أعطتني كل شيء من دون تعب للوصول لها بحجة الغرام والعشق والثقة وأنا كنت كذئب أصطاد الفريسة وآكلها وأرميها عظاماً.

ـ ولكنها أحبتك وهذا أجمل وأقوى إحساس في العالم.

ـ أجل وأنا حقير وتافه، لم أقدّرها ورميت بها كقمامة في أول حاوية مررت بها.. نسيت كل اللحظات التي عشناها بثواني.

ـ يا الله كم أنت عادل.. أنظر لأنك أنت الخائن تزوجت من إنسانة خانتك.

ـ وكنت أظن أن نجوى لم يقبّل ثغرها إلا والدتها.. مثّلت الدور عليّ بإتقان.

ـ وهل عيب أن تتزوج بفتاة لها علاقات سابقة...؟

ـ قبل هذا الدرس نعم عيب وخطأ ولكن الآن أظن أنني بالغت في استئثار ذاتي وجبروتي لنفسي.

ـ الماضي لكل إنسان إن كان رجلاً أو أنثى لا يعرقل الحياة لأننا وبدون استثناء نخطئ ونحب ونعشق ونُصاب بلحظات ضعف أو جنون رغم أنها غير منطقية لأننا نعيش في مجتمع شرقي تسوده التقاليد ولكن هناك إله يا شفيق هو من يحاسب وفي عقابه لا يستثني الرجل. وهل يحق لك أن تقبل وتستمتع وتعيش صفوتك الجنسية في شرع الله بالحرام...؟

ـ لا يحق لي طبعاً.

ـ إذاً أنت الآن تلقيت صفعتك من ظلمك لحنين.. ابحث عنها وتزوجها.

ـ بعد ماذا.. سافرت لتنساني ولن تعود.

ـ كنت أريد أن أعلم كيف علمت أن نجوى خانتك لأنها لا تعلم من هو والد طفلها الذي في أحشائها؟ يمكنك أن تذهب.

خرج شفيق من غرفة الدكتورة وهو متعب لا يعلم ماذا سيفعل في حياته التي امتلأت بالضباب المسحوب بالأسى...؟

دائماً نشعر أن الحقيقة تمر مسرعة أمامنا لتخبرنا أنها موجودة وسيأتي يوم وندركها إن لم نقف أمامها لنكتبها على

صفحاتنا.. لندوّنها كرواية وننظمها كقصيدة عصماء وكطوق نحمله على أعناقنا ووسادة خالية من أحلام الكوابيس المرهقة كتاريخ العرب القديم وقسطاس العدل وفجأة تتبدد الفصول المتساوية في أزقتنا لتنقشع عبرة لكل الحكايات..

خرجت الدكتورة صباح من غرفتها مسرعة إلى غرفة نجوى لتخبرها أن طفلها ليس من شفيق.

ـ ماذا طفلي ليس من شفيق...؟

ـ نعم هذا ما علمته منه ولكن يمكنك إجراء اختبارات DNA لمعرفة الحقيقة وهذا من حقك ولكن علمت أن شفيق لا يريدك أن تعودي.. لا يهم الآن.. ما يهمني هو أمورك الصحية كطبيبة.. حالتك في خطر وأظن أن التحاليل الجديدة ظهرت نتيجتها سأرى ما هي وأعود إليك.

ـ مرحباً.

ـ أهلاً دكتورة سمارة.. التحليل معك.

ـ نعم تفضلي.

ـ هل قرأت ما فيه...؟

ـ لا.. لم أفتحه.

فتحت الظرف والخوف والحيرة مرسومة على وجهها أن يكون ما ظهر في التحليل السابق تم تأكيده في التحليل الثاني.

وقفت أمام شباك الغرفة ونظرت إلى السماء فشاهدتها صافية تتوهج بأشعة الشمس المشرقة وهذا الصفاء يشبه نجوى ولكنه تأخر ولم يعد له دور في الدنيا.

ـ ما بك دكتورة.. هل هذا التحليل يخصني...؟

ـ نعم يا نجوى ولا أعلم ماذا أقول لك...؟

ـ أنا بحالة سيئة.

ـ أجل يا نجوى لديك مرض يشبه خوفك الذي أرغمك على الخضوع لمنير وجعل منك ضحية لمجتمع لا يرحم ولا يهدأ ولا يفهم ولا يقبل أعذار وتوبة لأنك وبكل بساطة أنثى.

هذا المرض سيحوّلك لخاضعة.. لوضيعة في عيون كل جاهل وشحيح للأخلاق.

سيطر الصمت على نجوى وعقلها يفكّر ما هو هذا المرض الذي لا يرحم...؟

وتساقطت من عيناها دموع حزن حارقة ألهبت أحداقها وأثارت فضولها وصرخت قائلة:

ـ إن كان المجتمع لا يرحم والأهل والإحساس والقانون والجاهلون والمثقفون.. فيا مرحباً به لأنه سيأخذني بسرعة إلى الله الذي يرحم.. ما هو هذا المرض؟

ـ أنا آسفة يا نجوى لم أخبرك من أول تحليل أنك تحملين فيروس الإيدز وأعتقد أنه من منير وليس من زوجك.. سأعود وأتصل به ليجري التحاليل بعدما تأكدت.. ربما نقلتِ له العدوى وللأسف سيحمل الفيروس وعلينا أن نخبر منير.. أريد بعض المعلومات عنه وعن سكنه وأهله.. على كل من حمل هذا الفيروس أن يتعالج ويعلم به لكي لا ينشره.

ما جعل من حياتك المستهترة يا نجوى هو علمك للخطأ واستمرارك عليه..

رغم الحسرة والتوبة التي تشعرين بها التي ستكون لك مفتاح نجاة لخطاياكِ عندما تقابلين الله، لكنك أنهيتِ حياتك بأفعالك الطائشة والخوف الذي دفعك لتعودي للخطأ يشبه الخوف الذي يسيطر على الأراضي العربية المحتلة من الأعداء.. نعلم أنهم على خطأ وأنهم محتلون لأراضينا.. نقول الحقيقة لهم أن هذه الأرض لنا وأنتم مغتصبون لحقوقنا فيها ورغماً عن أنوفنا.

خلقنا لكي نقول ونقول....

الفصل الثاني
ليلة زفاف

نكتب دائماً على مسار حياتنا كل شيء جميل ونرسم لشريك العمر في مخيلتنا ما هو مميز في صفاته وأخلاقه لتغدو القصص كعلامة موسومة على شروق وغروب المشوار الذي ربما ينتهي كمسلسل تراجيدي تعيس أو كوميديا سوداء أم نهاية شجن ممزوج مع الفانتازيا وغبطة مكللة بالفرح لتهلل على السطور سيناريو له حبكة لو حاول المخرج أن يغير فيها لن يستطيع لأنها مكتوبة مع مشهد الختام.. فتندرج الأحداث فتقع على كاهل كاتبها ليقرأ القارئ ويشاهد المشاهد البناء الدرامي بلا قيود ليبدأ العرض.

ـ هل شاهدتِ المريضة في الغرفة السادسة عشر.

ـ لا لم أشاهدها.. ما هي حالتها...؟ ليست من اختصاصي.

ـ هي منهارة كلياً، قمنا بفحصها وهي نائمة الآن ولكنها طلبت طبيبة نسائية.

ـ هل هي حامل؟ ولماذا لم تفحصيها...؟

ـ طلبتك شخصياً دكتورة صباح.

ـ سأذهب إليها بعد أن تستيقظ.

ـ أين أنا؟! أريد أن أذهب إلى منزلي.

[غرفة سمر في المشفى]

[الممرضة] ـ صباح النور.

[بخوف وقلق] ـ بمن تتصلين...؟

ـ الدكتورة صباح.

ـ نعم قولي لها أن سمر تريد رؤيتك لأمر هام.

ـ لا تقلقي هي طلبت مني عندما تستيقظين أن أتصل بها.. لحظات ستكون هنا.. عن إذنك.

ـ صباحك سعيد يا سمر.

[بلهفة] ـ ألا تذكريني.. تنظرين لي بحيرة وتعمق.

ـ ولكن لم أنت خائفة...؟ نعم أنت ابنة الجيران في الحي المقابل لحيّنا.

ـ جيد أنك تذكرتني.. أرجوكِ أرجوكِ.. أريد كرامتي.

ـ ماذا تريدين؟ كرامتك!

ـ نعم الكرامة التي أهانها زوجي يوم زفافي البارحة...!

ـ ولكن كيف...؟ أريد معرفة ما حصل؟ وما علاقتي أنا بالموضوع...؟

تضحك الدكتورة صباح مما سمعت.. أمر غريب تسمعه لأول مرة أن رجل أهان كرامة زوجته ليلة الزفاف وكيف ستعيد لها كرامتها؟ اعتلت الدهشة ملامح الدكتورة صباح... أما سمر فبدأت تنهار للمرة الثانية.

ـ لا تبكِ يا سمر وأخبريني الكرامة التي تريدينها كيف ستعود لكِ...؟

ـ تزوجت من أحب.. تزوجت رجل أحلامي.. تزوجت حبيبي.. ولكنه بكل المعاني التي أحملها بداخلي من صدق ووفاء وإخلاص له اتهمني بالفجور وقلّة الشرف.. قال لي أنت ساقطة مخادعة تلبسين قناع البراءة ولم ترضين أن أقترب منك قبل الزواج وبعد أن تزوجنا أنت لست إلا عاهرة.

ـ انتظري انتظري أريد أن أعلم الأسباب التي جعلته يقول لك هذه الألفاظ النابية.. اهدئي وتحدّثي من دون مقدمات لأني أصدق ما تقوله أنثى مجروحة ودموعها تذرف من عيناها بهذه القوة والقهر.. اهدئي.

أمسكت الدكتورة صباح منديل ومسحت دموع سمر واحتضنتها وقالت لها بصوت مليء بالحنان والدفئ:

ـ يا سمر لا تتوقعي من الرجال الشرقيين أن ينظروا إلى المرأة الشرقية إلا أداة للشهوة وتفريغ للكتب الجنسي المسيطر عليهم.. يزعجهم نجاح المرأة وقوتها وتفوّقها عليهم.. يزعجهم قولها للحق في محافل الحياة المشتركة.. انتبهي لكلمة [مشتركة].. مشتركة تعني أن لها الحق مثله في المساواة الفكرية والعلمية والعملية.. هذا لا يعني أنه لا يوجد من لهم نظرة سلام للمرأة ولكنهم قلّة قليلة.

ـ ولكن يا دكتورة هناك من النساء والفتيات يخطئن.

ـ أنا أتحدث عن الأنثى والكفاف المتواجد الذي وضعت له خطوط حمراء موحد مع الاحترام كيانها.

ـ حديثك يعطيني الأمان.

ـ ممتاز تماسكي وأخبريني عما يزعجك.. تفضلي لكي أعلم كيف سأعيد لك كرامتك التي تتألمين لأجلها...؟

ـ البارحة كانت ليلة زفافي على مجدي.. أظنك تعرفينه.

ـ الشاب الذي يعمل موظف في البنك ويسكن في نفس البناء الذي أسكن فيه.

ـ نعم هو.

ـ أذكر أنكم على علاقة حب قوية كانت حكايتكم كأساطير الغرام القديمة.

ـ كنت أنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر أن تجمعنا جدران المنزل وأن تغني لنا العصافير ويعطر أيامنا الياسمين وأن يضيء القمر ظلامنا وتهدينا النجوم الحنان.. كنت في قمّة السرور والبهجة.. تحقق حلم ترقبته من سنين ولكنه كان سواد كامل.. رماد لم ينطفئ كشموع تبحث على من يشعلها لتنير العتمة.

ـ أنت حساسة جداً يا سمر.. ادخلي في صلب الموضوع.

ـ قال لي في ليلة الزفاف وبعدما تم الحفل وأوصلتنا عائلتي وعائلته إلى المنزل أنني لست فتاة وغشاء البكارة لدي غير موجود وهذا غير صحيح.. ضربني وشتمني ومزق لي فستان الزفاف وأخرجني كما أنا من منزله في وقت متأخر ولم أشعر بنفسي إلا وأنا في المشفى.. سألت عن اسمها فتذكرت أنك تعملين بها كطبيبة نسائية في قسم التوليد.. فطلبتك لأخبرك ما حصل معي.. أريدك أن تفحصيني أنا مازلت عذراء ولم يقترب مني رجل.

ـ يا سمر أنا لا أشكك في أخلاقك وبالفحص سيتضح لي ماذا...؟ مممم.. ولكن إن كنت تخفين أمر ما قولي أنا لست المحاسب ولن أعاقب.. سأمد لك يد العون.

ـ لا دكتورة لست كما تظنين أنا متأكدة من أن هناك خطأ ما.. أنا عذراء افحصيني.

فحصت الدكتورة صباح سمر ووجدتها عذراء، ولكنها علمت لم ظنّ مجدي أنها ليست عذراء وأن غشاء بكارتها تهشم وظنّه ممزق.

ـ الغشاء لديك سليم مئة بالمئة.

ـ إذاً لماذا اتهمني ظلماً وبهتاناً...؟

ـ لأن غشاء البكارة لديك (imperforatl) وهو من النوع المطاطي.

ـ الحمد لله أنا بكر.. أنا بريئة.

ـ يا سمر لا تقلقي.. هو نوع من الأنواع المختلفة لغشاء البكارة.. فهناك أنواع وأشكال للغشاء لدى الفتيات.. الحلقي أو الدائري والغربالي والعلالي والمزدوج الفتحات والغشاء المصمت والمطاطي.. والمطاطي ذا فتحة كبيرة ومتسعة حيث يظهر وكأنه حلقة دائرية على جوانب فتحة المهبل ولا يتم نزول الدم منه عند إيلاج العضو الذكري فيه وقد لا يستطيع الزوج إتمام الإيلاج بشكل سليم فيه.

ـ فهمت.. فظن هو أنني غير عذراء.. يا له من غبي وعديم الثقة.

ـ لا تلوميه يا سمر.. في مجتمعاتنا العربية الشبان لا يعرفون هذه الأمور ومنهم من يعرفها.

ـ لا يهم يا دكتورة صباح من يعلم أو لم يعلم.. المهم أن عشرة السنين من الحب والصدق والوفاق لم تغفر لي عنده.. لنفترض أنني لست عذراء أين النخوة والرجولة...؟ أين العشق؟ وأين الليونة التي في قلبه...؟

ـ ما حصل معك ذكرني بقصة فتاة أعرفها تصرف خطيبها عكس ما فعل مجدي معك.

ـ أما يا عزيزتي ما تقولينه عن الكماليات الأخلاقية عند غشاء البكارة لدى بعض الرجال يصبح كابوس ونقمة على كل فتاة بنظرهم لم تحافظ عليه.

ـ ماذا أفعل الآن وقد اتهمني ظلماً..؟ ماذا أقول لعائلتي ولأهل الحي الذي أسكن فيه.. يوم زفافي كان يوم انفصالي عن زوجي.

ـ لا ذنب لك يا سمر أنت لم تخطئي.. للأسف دائماً تثار الشبهات حول عذرية الفتاة التي خلقت بغشاء مطاطي وهنا تأتي دور الثقافة الجنسية التي يجب على الزوجين أن يكونوا على وعي تام بها لمنع حدوث أي التباس أو تعقيد للأمور.

دائماً ما يحدث عند ممارسة العلاقة يتمدد الغشاء مع الولوج ولا يتمزق وبالتالي لا ينزل منه قطرات دم حتى مع تكرار العملية الجنسية لمرات عديدة، ويحتاج لفضه في أغلب الأحيان لتدخل جراحي (الفض).

ليتك أتيت إلي أو ذهبت لأي طبيب نسائي أو طبيبة لفحصك لإطلاع مجدي على نوع الغشاء.. للأسف ارتكب حماقة وتسرع بتصرفاته.

لأن أخلاق الفتاة لا تحدد فقط بغشاء بكارتها وإنما السلوك والأخلاق وتمسكها بمبادئها من قيم سامية وتحفظ واحترام وإذا عرجنا للأمر على هذه النقطة يا سمر فهناك الكثير من الفتيات سيئات السمعة يتمتعن بغشاء بكارة سليم وذلك بعدة طرق أصبحت متاحة.

ـ أريد أن تتصلي به وتخبريه.

ـ تريدين العودة له.

ـ لا أريد العودة له أهان كرامتي وشرفي ونسي أنني في يوم من الأيام ساندته ووقفت معه في مستقبله ولم أكن حبيبة

فقط كنت له الشقيقة والأم والصدر الحنون الذي عاش معه لحظاته السعيدة والحزينة.. لا يهمني أمره بعدما تخلّى عني.. ولكن كيف سأنظر لكل إنسان علم أنني تزوجت؟ هل سينظرون لي على أنني المجني عليها أم الجانية؟.. هل أكتب لوحة كبيرة وألصقها على صدري مع تقرير طبي من الأطباء أنني تطلقت لأنني عذراء بغشاء مطاطي.

ـ لا تهتمي للقيل والقال وحديث الناس عودي كما كنتِ وأنا سأتصل بمجدي أو سأقابله مساء عندما أذهب إلى منزلي وأخبره عن الحماقة التي ارتكبها بحقك.

ما حصل معك يشبه حقوق الإنسان بالحياة.. الجميع يعلم أنها موجودة وستبدأ وتنتهي.. نستيقظ على أمل أن نعيشها للحظة تمر من أمامنا.. نشاهدها ونركض خلفها نطالب بها نسعى لتكون لنا ولكن عندما يأتي يوم الحصول عليها نرى الأكثرية أداروا ظهورهم وتنكروا لها ليعود الظلم والفساد والتشرّد والجوع والتعب يحاصرنا في كل مكان.. فطوبى لمن عاش حياته مستنيراً بعقله مدافعاً عن كل ذي حق من حقوقه بالحكمة والذكاء.

ـ والآن ماذا أقول لعائلتي؟ أريدك أن تساعديني بشرح الأمور لهم.

ـ أجل يا سمر سأفعل هذا الأمر.. أنت متعبة ارتاحي اليوم في المشفى ليوم غد وأنا سأتكفل بإخبارهم الحقيقة وأريدك ألا تقلقي سأمتص غضب عائلتك وأوصل لهم الفكرة كاملة.

ـ أشكرك يا الله لأنك كشفت لي مجدي وأدركت أنه الرجل الغير مناسب لأكمل معه حياتي.. وشكراً لك دكتورة صباح أشعر بالراحة الآن.

ـ هذا جيد.. أنا ذاهبة.

ـ ولكن أريد معرفة ما حصل مع الفتاة التي تصرف معها الشاب الذي خطبها بعكس مجدي.

ـ سأعود وأخبرك ولكن تأخرت ولديّ مريضات بحاجة لي الآن.

ـ استريحي لحين عودتي إليك.. طاب يومك بالخير.

مع السلامة دكتورة صباح.

ارتاح قلب سمر بعد أن علمت السبب الذي جعل من مجدي رجل ثائر من الغضب يوم زفافه ولكن هذا الغضب

جفا على جرح في إحساس سمر لا يغفره قلبها ولا يتحمله عقلها شعرت أن دموعها التي تساقطت من عيناها كنكهة المرار والعلقم أيقنت أن الدنيا إن أعطت تعطي لتأخذ.. تواجه تهدينا لتحاسب.. شعرت بألم لم تشعر به من قبل.. تذوقت طعم ازدراء واستحقار بأمر شرفها.

وقررت ألا تعود لمجدي رغم معرفته بالحقيقة وندمه على ما فعل وعائلتها ساندتها في الظروف التي ستمر بها فألسنة الناس لن ترحمها كجمرات ستتساقط على رأسها وسؤال وجواب وتبرير وأسف ولماذا وكيف ومتى...؟

... العودة بالزمن إلى الوراء الجميل جميل ولكن سيكلفنا الكثير...

ـ مجدي عاد لصوابه وندم على ما فعله معك يا سمر.. عودي له.

ـ لا أريد يا دكتورة، أنا خارجة من المشفى غداً إلى منزل أسرتي لا أريده، كرامتي تمنعني أن أعود لرجل داس على مشاعري بسهولة وطاب له أن يخرجني من منزله في وقت متأخر وأنا شبه عارية.

ـ كرامتك محفوظة يا سمر ولكنه تاب واعتذر لأسرتك وأراد أن يشاهدك وأنت تمنعتِ عن رؤيته، ألا يوجد في قلبك حب له...؟

ـ طبعاً لا، هو باع الحب لأجل غشاء البكارة، وأنا أبيع الحب الذي كنت أكنّه له لأجل الكرامة.

ـ هذا من أبسط الحقوق لك لتعود لك ثقتك بنفسك واستقلاليتها.

ـ أريد أن أنسى، لربما معرفة ما حصل مع غيري يعطيني جرعة من التفاؤل.. وعدتني أن تحدثيني عن فتاة حصل معها عكس ما حصل معي.

ـ أجل هي صديقة لي أيام الجامعة في كلية الطب، غضبك لكرامتك أيقظ ذاكرتي لأحداث مشوّقة لإحدى صديقاتي في الكلية قبل أن نتخرج ونصبح طبيبات.

ـ وأنا أتشوّق لمعرفة ما حصل معها...؟

ـ هي الآن أم لثلاثة أولاد وزوجة لرجل عظيم بصفاته.

الحب يا سمر جمع بين اثنين في الكلية، هديل وفادي، الحب والعمق الذي استمر لست سنوات بينهما، كانا كعصفورين يغرّدان العشق والغرام ولكن للأسف.

ـ تخلّى عنها...!

ـ لا لم يتخلّى عنها على العكس هي من تخلّت عنه بعدما كان الحب تواصل جسدي بينهما بعلاقة جنسية كاملة.

ـ تقصدين بكلامك أن عذريتها انتهت معه.

ـ نعم.

ـ هذا غريب كيف أخبريني...؟

ـ اتفقا على الزواج بعد التخرّج وكان فادي صادقاً معها لم يتخلى عنها كان من الطلاب المتفوّقين والمميزين، أراد أن يتخصّص الطب خارج البلد ولكن هناك سنين ستمر.. هديل رغم حبها له ولكن كانت فتاة تحب المال وتريد الحصول عليه من دون تعب. شخصيتها جريئة جداً مندفعة وصريحة وقوية الفكر وحاذقة ولها قدرة على الإقناع بشكل رهيب. أتت منحة مجانية ليسافر فادي ليكمل دراسته في الولايات المتحدة الأميركية وتعاهد مع هديل على انتظاره ليعود ويتزوجان.

ـ لماذا لم يتزوجها قبل سفره...؟

ـ فادي كان متوسط الحال المادي، كان يعمل ويدرس ولا يستطيع الزواج.. منزله مع أسرته لا يتسع لفرد جديد، وهديل كما قلت لك فتاة تحب المال والوفرة والتفاخر.

ـ هل كانت جميلة...؟

ـ نسيت إخبارك أنها فائقة الجمال والحسن، فاتنة جداً ولكنها نرجسية.

ـ قلت إن فادي ذكي.. لماذا عشق فتاة تحب المال كثيراً...؟

ـ الحب يا سمر عندما يأتي من دون استئذان لأحد لا يعطينا خيارات ولا يمهد لنا المشاعر التي نمتلكها لنختار بشكل صائب، يضع غشاوة على أعين القلب لكي لا نشاهد كل ما هو معيب بالحبيب، ولهذا السبب الحب هو الحب لأنه صفاء ونقاء، لا يرشدنا للمساوئ بالإنسان الذي نحب لتستمر الحياة، لأننا لم نخلق كاملين، فلولا الحب لماتت الإنسانية التي خلقت بالفطرة بداخلنا.

ـ فعلاً ولهذا السبب أنا لم أستطع اكتشاف العيوب الموجودة بشخصية مجدي.

ـ في بعض الأحيان نشاهد العيوب ولكن الحب يمنعنا عن مواجهتها بمن نحب بصفات والخصال التي لا تعجبنا لأننا نحبهم.

ـ حقاً إنه الحب لمن أحب بصدق.

ـ لا تقارني ما مررت به من تجارب بتجارب غيرك، ولكن تعلمي. سأكمل لك..

في يوم من الأيام تعرضت هديل لحادث سير ولكنها نجت منه بأعجوبة، من صدمها بسيارته رجل أعمال كبير ومعروف في الأربعين من عمره ولكنه أسعفها واهتم بها حتى تحسنت حالتها الصحية وكان في قمة اللطف معها وهي بدورها لم تقدم ضده شكوى لأن الحادث غير مقصود.

تعرف على أسرتها وأصبح يزورهم بشكل مستمر يجلب لها الهدايا ويهتم بها ولأمرها، فأعجبها وأغراها ما يملكه من شركات وأراضي وأعمال وثقافة ووسامة فتقربت منه فتعلق قلبه بها وأحبها كثيراً.

ـ وهي أحبته.

ـ نعم ولكنها أحبت ماله أكثر منه. عبد الرحمن رجل مستقيم ولديه نخوة وصادق كثيراً.. حنون وطيب.

ـ والحب الكبير الذي جمعها مع فادي....! انتهى.

ـ نعم وذهب مع الرياح، أصبح في خانة الذكريات منسي لا وجود له في عقل هديل.

ـ وفادي علم أنها لا تريده.

ـ لا طبعاً هو مسافر يدرس وهي لم تخبره بشيء، اشترت العز والجاه وباعت الحب الذي جمعها مع فادي.

تمت الخطوبة وكانت هديل في قمة الفرح والابتهاج وعبد الرحمن عاش معها في فترة الخطوبة أجمل اللحظات، وفعلاً بدأت هديل تغرم به كلما اكتشفت شخصيته عن كثب.. مرّت أيام الخطوبة ولم يكشف عبد الرحمن أن هديل ليست عذراء (Virgin) ولم تصارحه بالحقيقة وأتى يوم الزفاف.

ـ صديقتك مغامرة ومجنونة.

ـ نعم (تضحك) كانت مستعدة للغش لتحصل على ما تريد من المال والراحة المادية.

ـ وهل رقعت نفسها...؟

ـ لا يا سمر لم ترقع نفسها بعملية استرجاع جراحي لغشاء البكارة بعد فقدانه.

يوم زفافها دار حديث بينها وبين عبد الرحمن صريح وواضح وصادق.

ـ أنا أحببتك يا عبد الرحمن ولكن أخفيت عليك أمر مهم ولكنه حدث في يوم من الأيام وهو من الخطأ الذي أقدمت عليه في حياتي، ولكن قبل أن أخبرك عنه كن على ثقة تامة أنني أحبك كثيراً.

ـ لم هذا الكلام يا هديل؟ ما هو هذا الأمر الذي تخفينه عني...؟

ـ أنا لست بعذراء يا عبد الرحمن، ولم أذهب لأطباء لأعيده كما كان.. لا أريد خداعك. كان بالإمكان وبكل بساطة أن أجري عملية جراحية وأعود بكر كما كنت.

عشقت رجل وكانت علاقتنا بوعي تام وسلمته نفسي باسم الحب والثقة ولكنه سافر، وظهرت في حياتي وأحببتك، والباقي أنت تعرفه.

صمت عبد الرحمن وهو مصدوم والاستغراب يعتلي ملامحه، فسقطت الدموع من عينيه وأمسك بهديل وسألها والسخط مسيطر على أحاسيسه وقال:

ـ لم كل هذا الزور يا هديل...؟ هل أستحق؟

ـ لا.. لا تستحق، أنا أحبك، لا تفضح أمري أرجوك، لا تتخلى عني.. لست فتاة بلا شرف، كان بإمكاني أن أنتظر فادي ليوم زفافنا وهو يتواصل معي ولا أحدثه، أتجاهل جميع اتصالاته.

ـ لماذا لم تخبرينه أنك مرتبطة...؟

ـ فادي لم ينكر في يوم من الأيام الحب الذي جمعنا.

ـ خوفاً على مشاعره.

ـ ربما ولكنه سيعلم.

ـ مازلت تحبّينه؟

ـ لا.. لا.. أنا أحبك أنت.

ـ بدأت هديل تستعطف عبد الرحمن.

ـ رأسي يؤلمني، حولت يوم الزفاف ليوم كئيب.. سأذهب إلى الغرفة الثانية وأرتاح.

ـ ماذا ستفعل...؟ هل ستنهي علاقة زواجنا.

ـ لا أعلم دعيني بمفردي وغداً لناظره قريب.

ـ مواجهة صعبة.

ـ أجل يا سمر.. وهديل لم تنم في هذه الليلة.. أطلّ الصبح القريب وهي تنتظر قرار عبد الرحمن.. هل سيطلّقها؟ أم سيبقى معها...؟ الحيرة احتلّت أفكارها.

ـ صباح الخير.

ـ صباح النور.

ـ سأحضر لك القهوة.

ـ لا أريد.. أنا لم أغفو وأنا أفكّر، رأسي سينفجر، ولكن توصلت لقرار.. بعد هذا اليوم أنا وأنت سنمسح من ذاكرتنا ما جرى، حتى فادي سيموت في عقلك إلى الأبد.

ـ تفضل.

ـ لن أتخلّى عنك يا هديل، والسبب هو نخوتي وضميري وأخلاقي، والحب الذي منعني عن الابتعاد عنك.. ليس من الرجولة أن أدمّر حياتك وأفضح أمرك.. والسمو الرفيع في

تربيتي والعطاء والاحترام الذي ربّاني عليه والدي لم أشعر به إلا الآن لأني وضعته أمامي فوجدت أن من الضعف أن أجهر بما اقترفت بلحظة ضعف وحب، لأنني لست بضعيف.

ـ ارتاح قلب هديل فهرعت إليه وضمّته لصدرها وابتسمت وقالت له أحبك وهي تبكي وتتأسف وتعتذر منه.

ـ ولكن هناك سؤال.

ـ تفضلي يا سمر.

ـ ربما طلقها ولم يتحمل الأمر.

ـ هي على علم بحبه الشديد لها وكانت مستعدة لأي رد فعل منه حتى لو لم يتم الزواج هي لم تخبر فادي بارتباطها من عبد الرحمن.

ـ مجازفة خبيثة.

ـ أجل، والآن لديهم ثلاثة أولاد ولكن هذا لا يبرر الخطأ الذي حصل.. هديل مذنبة بحق فادي لأنها تخلّت عنه وكانت مخادعة لزوجها، وما غفر لها هو صدقها معه يوم الزفاف والحب الذي كان في قلبه لها، هذا عكس ما حصل معك يا

سمر في ليلة الزفاف.. أنت لست مذنبة، وبلحظة أصبحت مدانة، وهديل رغم خطئها مرّ الأمر عليها من دون أوجاع والآن تعشق زوجها عبد الرحمن كثيراً.

ـ عبد الرحمن رجل عظيم فعلاً.. هو مثال الإباء والأصالة.. شكيم الرجولة.

ـ ولكن من هم من أمثاله عندما يعلمون بهذا الأمر ولا يتهورون عددهم قليل.. الفتاة التي تفرّط بغشاء بكارتها بنظر المجتمع ساقطة.

ـ وماذا حصل بفادي عندما علم أنها تزوجت...؟

ـ عاد وحاول أن يلتقي بها ولكنها رفضت وأرسلت له برسالة معي أنا أن يبتعد عنها.. عاش فترة من المآسي وتأوّه ولكنه تزوج وأصبح مديراً لمشفى هو مالكها.

ـ جيد جداً وهل ندمت هي لأنه أصبح ثرياً وتخلّت عنه.

ـ لا.. الأمر كان طبيعياً جداً بالنسبة لها ونسيته تماماً.

ـ أتمنى أن يكون وجد زوجة رائعة مثله لأنه رجل مقدام وشجاع ووفي بالحب.

ـ نعم وجد.

ـ ولماذا تبتسمين دكتورة...؟

ـ لأنها أنا من تزوجها الدكتور فادي.

ـ هذا مدهش! لم أتوقع أن الدكتور فادي هو نفسه من تتحدثين عنه.

ـ هو بذاته جارك بالحي يا سمر.

ـ ما سردته لي يا دكتورة غيّر من تفكيري وأريد أن أبحث عن الشخص الذي يستحقني كفادي وعبد الرحمن لأنني متأكدة أن هناك من أمثالهم.

ـ طبعاً ومؤكد أنه يوجد لأن الخير والشهامة فطرة ولكن هناك من غيّرته الظروف والتربية أعادت تأهيله للسيئ وهناك من بقي ثابتاً على أرض الواقع لأن الواقع هو المنطق الذي بني على القيم العالية بكل المعايير والسمات الحميدة.

ـ سأعود لأقدم لك الشكر لأنك لست بطبيبة فقط.. أنت إنسانة أخاذة وباهرة بجميع المقاييس الإنسانية.

ـ شكراً جزيلاً يا سمر.. أتمنى لك الحياة الهادئة والسعيدة بالوفاق من الله القدير.

... حاول أن تكون إنسان...
... وتذكر أن الدنيا إنسان...

الفصل الثالث

عابروا الشرف

الشتاء بقسوته يصفع الدنيا بالرياح الباردة.. لا يوجد أحد من المارة في الطرقات والهدوء خيّم على الأحياء فيستعد القمر برحيل إلى سماء تجعل من ضوئه مساحة كبيرة ليسعد من يعشقونه عندما يكون بدراً وهلالاً ليبدأ ضجيج النجوم المتلألئة وتتمزق خيوط الليل المظلم فينساق الغيم ويتماسك ليسقط منه حبات المطر لتقع على الأرض ليستعد المطر ليروي لنا أحداث دوّنت كالرعد والبرق.

ـ يبدو أن اليوم لن يأتي أحد دكتورة صباح.. الجو بارد جداً والمطر يهطل بغزارة.

ـ سأنتظر قليلاً وإن أردت الذهاب إلى منزلك لا بأس.

ـ لا.. سأبقى ونخرج معاً.

ـ البارحة نسيت شبّاك العيادة مفتوح.. أغلقته بعد خروجك.

ـ أعدك أن الأمر لن يتكرر.. عن إذنك.

أخرجت سارة سكرتيرة الدكتورة صباح في عيادتها من درج المكتب الذي تجلس خلفه على كرسيها لتنظم مواعيد المريضات والمراجعين رواية يقظة وجدان الشيطان لتقرأ قليلاً ريثما يحين وقت الذهاب إلى المنزل، وهي تسمع صوت المطر المتساقط على الشباك.. تك تك تك تك.. شردت مها بالرواية ولم تنتبه أن هناك أحد ما يطرق الباب تك تك تك.. واختلط عليها الأمر مع صوت المطر القوي حتى سمعت صوت فتاة تقول:

ـ ألا يوجد أحد هنا...؟

أغلقت مها الكتاب واتجهت نحو الباب وفتحت الباب بسرعة.

ـ نعم يوجد تفضلي.

ـ مساء الخير.

ـ مساء النور.

ـ أريد أن أعالج نفسي.

ـ ادخلي واجلسي لأخبر الدكتورة.

السكرتيرة مها أخبرت الدكتورة صباح بوجود مريضة في الخارج، وطلبت منها أن تدخلها إلى غرفة الكشف.

ـ ظننت أنه لن يأتي أحد في هذا الجو البارد والممطر، والمريضة جديدة أول مرة تأتي العيادة.

ـ أدخليها لأكشف عليها بعد أخذ بياناتها الكاملة.

ـ حاضر دكتورة.

ـ مساء الخير دكتورة.

ـ مساءك سعيد.. تفضلي.. أريد أن أفهم لماذا لم تتحدثي عن مشكلتك بشكل عام للسكرتيرة لتدونه على بطاقة المراجعة..؟ مكتوب فقط عمرك تسعة عشر عاماً وأنك طالبة في الجامعة.. أشاهد في بياناتك أمور مخفية هل أنت تخجلين من الحديث عن حياتك؟ ومن ماذا تعانين...؟

ـ لا أخجل ولكن الخجل بما حل بي من.. من....

صمتت نتالي والخوف سيطر على صوتها والأفكار تتأرجح.. ماذا تقول للدكتورة...؟ كيف ستشرح لها؟ وكيف ستقول أنها تريد إجراء عملية؟ وكيف ستبدأ الحديث؟

ـ لم أنت صامتة.. تحدثي؟ هل أنت متزوجة من زمن بعيد؟ وهل هذا أول ولد لديك؟

ـ لا لست حامل ولا أعتقد أنني حامل.

ـ إذاً تريدين الكشف عن مشكلة أو إصابة نسائية أو ألم تشعرين به.

ـ لا أشعر بأي ألم في جسدي.. لدي ألم في قلبي الذي تحطم بسبب والدي وأمي وصديق والدي.

ـ لست مصلحة اجتماعية ولا طبيبة نفسية.. ربما أخطأتي العنوان.

تتحدث نتالي بصوت منخفض بنبرة ألم وحزن شديد.

ـ أعلم أنك طبيبة نسائية وأعلم أنك مشهورة بنزاهتك وصدقك في عملك، وأتيت إليك لإجراء عملية جراحية، ولكن سأخبرك بما حصل معي، وبعد أن تسمعي لك الحكم إما أن تقبلي أو ترفضي ما أريده منك.

ـ الوقت تمأخر أرجو منك أن تتحدثي بسرعة.. استريحي.. أشعر أن أعصابك مشدودة.. وجهك لونه مائل للصفرة.. لا تقلقي خذي نفس عميق وتحدثي بهدوء.

ـ الراحة التي تتحدثين عنها من أين ستأتي؟ وأنا فتاة حطّم حياتها أقرب الناس وأعزهم.

ـ مازلت شابة صغيرة في مقتبل العمر.

ـ وكيف أكون شابة؟ ما حصل معي وشاهدته جعل من روحي عاجزة كالأغصان اليابسة في فصل الخريف.. كدمية ورقية بعدما داسوا عليها وأحرقوها من التعب.

تنظر الدكتورة صباح لها بتعجب...! ما هو الأمر الذي جعل من روح شابة صغيرة كعجوز تنتظر وقت رحيلها من هذا العالم؟ كقارب صغير مهجور على شواطئ النسيان مهمل عليه طبقة سميكة من الغبار والأوساخ المتراكمة.

ـ ومن الذي سبب لك هذه الجروح القاسية...؟

ـ مسعود هو السبب ومازن وهنادي.

ـ من يكون مسعود ومازن وهنادي؟ هم أقرب الناس لكِ...!

ـ أجل هنادي الخرقاء تكون والدتي ومازن والدي ومسعود هو صديق والدي منذ الطفولة والمقرّب من أسرتي.

ـ أسمع شتائم لوالدتك وهذا أمر غير صائب وأخلاقي.

ـ أنا أكرهها هي ليست بأم يا دكتورة.. هي وحش تتظاهر بالوفاء والعفاف والصدق والطيبة.

ـ ولكنها تبقى والدتك وعليك أن تحترمي دورها كأم في حياتك.

ـ وهي لم تحترم نفسها ولم تسعى جاهدة لتبتعد عن الأخطاء التي ترتكبها بحق عائلتها.. ليمتد الخطأ لحياتي وأكون أنا ضحية ثلاثة أشخاص يستمتعون بما فعلوه بي..

القتل.. لا لا.. أريدهم أن يتعذبوا قبل أن يرحلوا عن هذه الدنيا لربما أدخلهم الله في جنته.

بدأت نتالي بالبكاء الشديد واقتربت من الدكتورة صباح وانخفضت إلى قدميها وأمسكت بثوبها وقالت لها:

ـ أرجوك أرجوك لا تتخلّي عني.. ساعديني.. أنا فتاة مظلومة لست كأمي.. أرجوك هي من هدمت حياتي مع مازن ومسعود.

ـ قفي وكوني صلبة وتحلّي برباطة الجأش وتحدّثي.

ـ أنا لست عذراء يا دكتورة ومازن وهنادي ومسعود هم السبب.

ـ كيف...؟ أنت لست متزوجة إذاً...!

ـ أجل وكيف سأتزوج من أحب؟ وكيف سأخبره أنني لست عذراء...؟ هل سيصدق أن ما حصل معي ليس بإرادتي وأرغمت عليه.

ـ كيف أرغمت عليه تحدثي...؟ ومن فضّ لك بكارتك...؟

ـ مسعود ومازن وهنادي... لا تتعجبي هم لا يستحقون لقب أم وأب ولهذا السبب أنا لا أحترمهم.

ـ أتفهم وأقدر الحالة التي تمرّين بها.

ـ الأب والأم أمان وحب واهتمام يفعلون المستحيل لأولادهم.. أما والدي ووالدتي فلا يستحقون لقب الأم والأب.. يستحقون لقب....

ـ يكفي.. لا تتلفظي بألفاظ نابية بحقهم فهمت فهمت..!

ـ هنادي ومازن.

ـ قولي أبي وأمي.

ـ لأجلك فقط.

ـ حسناً ولكن لا تهبطي للأسلوب الذي سلكه من حولك، ابق كما أنت.. الاحترام طباع النبلاء والصادقين.

ـ أمي وأبي يلعبان القمار وحياتهم مبنية على الغش والخداع والكذب، كل يوم يقيمون حفلات ليلية وفي آخر الليل يجتمعون على الطاولة للعب وهناك خاسر ورابح.

ـ تأتي إلينا شخصيات ثرية وشبّان مراهقين.. والدتي لها أسلوب ذكي على جعل الزبائن تخسر والربح لوالدي وصديقه مسعود دائماً.. أنا في غرفتي لا أخرج إلا لضرورة.. أنام وأصحو باكراً لأذهب إلى الجامعة.

وذات يوم من الأيام ارتفعت حرارتي وأصابني إعياء وألم.. حاولت ألا أخرج إلى والدي ووالدتي لأخبرهم ولكن الألم يزداد ويزداد.. تحملت ولكن لم أستطع أن أبقى.. أريد الذهاب إلى أقرب مشفى. فخرجت إلى الغرفة التي يجلسون فيها مع ضيوفهم.. ويا ليتني بقيت في غرفتي ولم أخرج لنجدة مازن وهنادي.. لا أحب ضيوفهم.. الجشع والقيم الهابطة تعتلي ملامح من يأتي إلى منزلنا.

ـ أمي.. أبي.. أنا أتألم كثيراً.

ـ انظر إلى الفتاة رائعة الجمال وفتية.

ـ أجل هي ابنة هنادي ومازن.. مثيرة وأنوثتها طاغية.

ـ مسعود ساعدني لحملها إلى السيارة لنقلها إلى أقرب مشفى.. حرارتها مرتفعة جداً.

ـ حسناً هيا.

ـ بقي والدي مع الضيوف وذهبت إلى المشفى مع مسعود ووالدتي بقيت هناك ليوم غد وخرجت في المساء، ولكن لاحظت اهتمام مسعود بي.. لم تبق أمي معي في المشفى وبقي هو برفقتي حتى عندما ذهبنا إلى المنزل لم يتركني للحظة بحجة خوفه علي.. وكان يقول لوالدي ووالدتي أنني مثل ابنته ويخاف عليّ كثيراً.

بدأ يتودد ويقترب مني ولكن شعرت أنه كاذب ويحاول أن يضع يده على أماكن في جسدي وأبعدها.. نظراته لم تكن نظرة الأب لابنته كما كان يزعم.. كنت أراه كمصاص الدماء الذي أشاهده في أفلام الرعب الأوروبية.

بقي على هذا الحال يهتم بي كثيراً وفي يوم من الأيام اتصلت والدتي وطلبت مني القدوم باكراً إلى المنزل.. كنت في الجامعة، وهذه أول مرة تطلب مني والدتي ألا أتأخر عن المنزل والقدوم بسرعة.

حاولت أن أعلم ماذا تريد...؟ ولكنها لم تصرّح بالأمر على الهاتف.

ـ ماما.. ماما مرحباً.

ـ أهلاً يا عروسة.

ـ ماذا قلت.. عروسة...؟!

ـ أجل أنت عروسة جميلة جداً اليوم سيأتي عريسك لخطبتك.

ـ ولكن أنا لا أريد الارتباط الآن.. لديّ دراسة وأريد أن أحقّق طموحاتي.

ـ لا تكوني الفتاة الغبية التي ستتخلّى عن العريس المناسب لأجل الدراسة والطموحات والآمال المزيفة.. المال يا نتالي هو الطموح لكل فتاة في سنك وحسنك.. أنا فعلت مثلك عندما

كنت في عمرك تعلمت وأحببت والدك وهو محاسب في شركة.. راتبه لا يكفي حتى مصروف السجائر.

ـ والمشروبات الكحولية والسهر والفساتين ومستحضرات التجميل وذهاب إلى الحلاق النسائي كل يوم وحضور حفلات الطبقة المخملية التي تظهرين فيها على أنك سيدة مجتمع راقي وهم لا يعلمون أنك تقيمين حفلات خاصة في منزلك للنصب والاحتيال لتبقين بنظرهم في نفس مستواهم.. تباً للمظاهر الفاخرة المزيفة التي جعلت منكِ دمية لا تشعر.. جدار ألوانه مقتصرة على ألوان النفاق واختلاق الأكاذيب.

ـ اخرسي.. ستتزوجين من هذا الرجل.. سيجعل منك أميرة تأمر وتطلب.

ـ لا أريد ولن أتزوج.

ـ هذا ليس بطلب يا نتالي.. هو أمر والأمر لمصلحتك.

ـ لن أتزوج من هذا الرجل.. عندما أريد الزواج سأتزوج من أحب وأرغب.

دخلت غرفتي وأنا أفكر ماذا أفعل...؟ أنا أحب زميل لي في الجامعة ولنا أحلام نريد أن نحققها معاً.. لم أخرج من غرفتي إلى الصباح الباكر.. ارتديت ثيابي للذهاب إلى الجامعة.

ـ إلى أين...؟

ـ لدي محاضرات.. إلى الجامعة.

ـ لا لن تذهبي إلى أي مكان.. ادخلي غرفتك.

ـ لا.. أريد الذهاب ولا يمكنك منعي.

تشاجرت معها وضربتني على وجهي فوقعت على رأسي وأغمي علي.. استيقظت من النوم وجدت مسعود أمامي مستلقٍ بقربي ففزعت وصرخت.

ـ أمي أمي أين أنت..؟

ـ ما بك نتالي؟ لم الخوف.. أنا صديق والدك وأحبك مثل ابنتي...؟

ـ اخرج من الغرفة بسرعة لا أريد أن تكون بقربي.

ـ نتالي أنا أحبك.. جسدك جميل وملمسه رقيق.. ما رأيك أن نستمتع قليلاً.

صفعته على وجهه وقمت بركله على بطنه ليبتعد عني وتوجهت إلى باب الغرفة فوجدتها مقفلة.. فوقف وأمسك بي من شعري ووضع يده على فمي وربط لي يداي وأغلق فمي..

توسلت إليه ولم يأبه.. كان ينظر لي كجائع متشرّد.. لم يرحم دموعي ومناجاتي.

ـ اغتصبك...!

ـ (وهي تبكي) أجل.

احتضنت الدكتورة صباح نتالي وقالت لها:

ـ يمكنك أن تقدمي ضده شكوى والقانون سينصفك.

ـ ولكن العار والفضيحة وحبيبي سيعلم والناس.. أنا مظلومة.. كيف سيفهمها مجتمع وضع الشرف محوره لمن بلا شرف.. للتي لا وجود لغشاء بكارتها وهي لم تتزوج.. مجتمع لا يبالي لا بفقه ولا يتعلم.. ثقافته معدومة.. المخادع والمحتال بلا شرف ومن نام ضميره بلا شرف والخائن بلا شرف ومن أهان كرامة الناس بلا شرف.

ـ أنت ترتجفين.. لا تتوتري.. أنا أعلم أنك صادقة.. القانون خلق والحق موجود يا نتالي.

ـ قلت لك والخزي الذي سيلاحقني طيلة حياتي ماذا؟ هل سيحاسبه القانون والحق.....؟

ـ والدك ووالدتك هل علموا بما حصل...؟

ـ أجل.

ـ وما هي ردّة الفعل التي صدرت منهم...؟

ـ والدي لا يريد أن يدخل السجن لأنه عندما طلب من مسعود الزواج بي رفض وهدده إن أخبر عنه سيعترف مسعود عن النصب والاحتيال الذي قاما به معاً بمساعدة والدتي.

ـ ولكن أين كانا في لحظة اغتصابك...؟

ـ خرجا بصحبة العريس لشراء الذهب ورؤية المنزل الذي سأعيش فيه ولا مانع لمن يعتبرني كابنته أن يبقى ملازماً وحارساً لخوفهم أن أهرب من المنزل.

الرجل الذي يريد الزوج ثري تم الاتفاق على صفقة زواج مقابل الملايين.

ـ لماذا لا تحركين كتفك الأيمن كثيراً.. ولاحظت أن قدمك تؤلمك...؟

ـ قبل أن يغتصبني قام بضربي ضرباً مبرحاً وهو يغتصبني لم يتوقف عن الضرب.

ـ هو سادي الجنس عندما يريد الممارسة الحميمة.

ـ وما هذا السادي...؟

ـ مصطلح لوصف الطريقة التي يستعملها أحد الطرفين كإلحاق الأذى الجسدي أو معاناة أو نفسي.. هو تعذيب.. نسبة لماركيز دي ساد الأديب الفرنسي الذي كتب في روايته عن الاندفاع القهري لتحقيق اللذة بالتعذيب.. وهو نوع من الاضطراب النفسي.

ـ والآن ما هو الحل لمشكلتي.. أريد أن أعود كما كنت لأعيش حياة طبيعية كأي فتاة تحترم نفسها ونفسها تحترمها.. لا أريد أن أكون كعابروا الشرف يمر عليهم مرور الكرام.. لا هم يمثلونه ولا هم به صادقون.

ـ لديك الآن حرب نفسية مع المجتمع ومع نفسك لتضعي حدوداً لما حصل معك؟ ستخوضين تجربة لبناء الهيكل الممزق.. كوني صلبة وتحلّي بالصبر.. المواجهة والصدق هما الطريق الذي ستسلكينه.. فمن يحبك سيقف معك ولن يتخلّى عنك.

... المصادفات تأتي بمضمونها على غرار ما نتوقع.. فما تفكر به يعود إليك لأن الكون له قانون مختلف.. عندما تفكر بالحب سيأتيك مسرعاً يدق بابك ليحتل أركان الإحساس المتصل بالقلب.. وعندما تضرب تفكيرك بالشر سيعود إليك مسرعاً، ولكن هناك سبيل وأقدار كتبت سنعيشها من فرح وحزن ومرار وأرق وماذا بعد...؟

اليقين التام والابتعاد عن الأشخاص التي حاصرت أقدارنا بأبشع الأبعاد النفسية هو سر النجاح.. فالتركيز على الخير كالمطالعة الأدبية وتاريخ الواقع مع رسم للخطوات والمشاعر والسير قدماً إلى تحقيق الذات له توابع مذهلة مع إلحاح وإصرار واستمرار للوصول إلى القمة.

(وفي يومٍ جديد)

ـ صباح الخير دكتورة

ـ صباح النور.

ـ ما بك...؟

ـ لدي حالة غريبة في قسم الإسعاف.. محاولة انتحار فاشلة.

ـ عالجنا الجرح ولكنها وحيدة أو وحيد.. اتصلنا بأهله لا يريدون الاطمئنان على ابنتهم.

ـ قلت وحيد ووحيدة هل هو ذكر أم أنثى...؟

ـ أنثى وذكر في الوقت نفسه.. وأريد مساعدتك.. الحالة غريبة من نوعها.

ـ اعرضيه على أحد الأطباء المختصين ليعلم ما حصل...؟ القانون والشرطة لهم دور.

ـ أنت نائبة المدير والحالة تحتاج لحكمتك دكتورة صباح.

ـ سأذهب معك لقسم الإسعاف.. هيا.

ـ اهدئي لم أنت عاقدة حاجبيك وغاضبة...؟

ـ أنا رجل لست فتاة.

ـ ولكن ملامحك وشكلك أنثى... والبيانات في الهوية الشخصية لرجل...!

ـ كنت رجل ولشدّة غبائي حوّلت نفسي لأنثى.

ـ هل هذا التحول لأنك تريدين اللعب واللهو والتحول الجنسي...؟

ـ لا.. ألا تسمعين ما قلت لك (بغضب)

ـ ماذا أقول الآن لك...؟ أتحدث معك بأي صفة جنسية...!

ـ بصفة الرجل أرجوك.. لأني سأعود رجل.. أنا رجل رجل.

ـ ما اسمك الحالي؟ هل هو متغير كشكلك أم ماذا...؟

ـ اسمي داني.

ـ اسم جميل.. ما سبب تحولك؟ ولم تريد العودة لجنسك الذي خلقت عليه...؟

ـ لأن قرار التحول خطأ ظننته بالسهل في مجتمع لا يرحم.. لا يترك أحد إلا والحكم عليه وتنفيذ الحكم بقرار نهائي.. إن من حول نفسه جنسياً ارتكب جريمة بحقهم وحق نفسه.

كنت أشعر باضطراب جنسي أرفض جسدي الذكوري.. أرفض كل ما يمارسه الرجل في حياته اليومية.. أرفض معاملتي كرجل.. أشعر دائماً أنني أنثى أحب الرجال حتى شهوتي الجنسية لا تميل للإناث بل للرجال.

ـ فهمت يا داني.. لديك انخفاض في الأندروجين الذي يساهم في تحديد هوية الجنس الأنثوي وهرمون التستستيرون في الدماغ عندما ينخفض في أوقات النمو إلى ذكورية غير مكتملة.

ـ أحب كل ما تحبه الفتيات منذ كنت صغيراً.. لا أحب قص شعري وأحب الأولاد الذين مثلي.. ذهبت لبلد مجاورة وأجريت عمليات الأعضاء التناسلية والثدي وبعض عمليات التجميل لوجهي.

ـ جيد أصبح لديك هوية جنسية جديدة وهذا الأمر مختلف تماماً عن التوجه الجنسي.

ـ وذهبت قبلها إلى طبيب نفسي ولكن كل ما كان يقوله لا يفيد حتى الأدوية لا فائدة لها.. أصبحت منبوذاً.. تعرضت للشتم والإهانات.

ـ أصبحت تتعرض (للتنمير).

ـ أجل التخويف من أسرتي كحرماني من ميراثي وغضب والدي ووالدتي علي وتحقير أشقائي لي.. حتى أصدقائي استعملوا معي القسر في الإساءة والتجريح والصد والابتعاد عدا واحد فقط وقف إلى جانبي وساندني نفسياً ومعنوياً وهو السبب في عودتي عن قراري وندمي للتحول في هويتي الجنسية.. أريد أن أعود رجل كما خلقني الله.

ـ ولكن هذا الأمر ليس بالسهل.. من المؤكد أنك عانيت من العمليات الجراحية.. أنظر إلى شكلك.. تبدو كفتاة رائعة الجمال، لماذا تريد أن تهدم ما وصلت إليه؟ ألم يكن لديك قناعة شخصية وذاتية ونفسية عندما ذهبت لتحول نفسك إلى أنثى...؟

ـ كنت في قمة السعادة رغم معرفتي للعواقب التي سأتعرض لها بعد التغير.

ـ ابقى كما أنت، والآن ليس هذا ما أريد معرفته.. أريد معرفة سبب محاولة الانتحار؟ وسبب الخدوش التي على وجهك إن كان هناك جرم فعلينا أن نتصل بالشرطة.

ـ لا تتصلي بالشرطة سأخبرك بكل شيء.

ـ أريد سماع الحقيقة.

ـ التحويل الذي طرأ على هويتي الجنسية حوّل الناس إلى ضباع برية تريد أن تنقضّ علي.. حولت أعضائي التناسلية وجمّلت نفسي ولكن قلبي الطيب لم يتحوّل وأخلاقي والقيم التي تربيت عليها لم تتغير.. هل أنا مذهب..؟ هل جلبت لهم العار أم لطخت حياتهم بالإثم...؟ كانت قلوبهم قاسية سوداء عميت عن توسلاتي التي باحت بما أريد ليفهموا أنني أريد أن أكون أنثى بكل ما تحمله المعاني للأنثى.

حتى أمي رفضتني وأخرجت من رحم الأمومة السم بدلاً من الحنان.. لم يحتضن وجعي أحد إلا ماجد وهو صديق لي في العمل في الشركة التي أعمل بها.. حتى الفتيات الذين أنسب لهن رفضن وجودي معهن.. تحطمت الآمال.. مديري في العمل طردني والجيران ينظرون لي نظرية استحقار وحقد.. ماذا فعلت؟ هل التحوّل لديهم من جنس إلى آخر حوّلهم لشياطين بشرية أم ماذا...؟

ـ لا ذنب لك أنك خلقت بمرض (الأنتر سكس) هويتك الجنسية الداخلية مختلفة عن الظاهرية.

ـ ومن الناحية الاجتماعية مرفوض أن تكون كما تريد ظاهرياً وداخلياً عليك أن تعاني وتذبل وتتحمل ولا أحد يشعر بما تريد إلا أنت.

ـ يا داني موضوع أو فكرة الاضطراب بالهوية الجنسية والتحوّل الجنسي مثير للجدل ومحرج في عالمنا العربي بشكل عام.. لست الوحيد الذي يعاني فهناك الكثيرين أمثالك يعانون ذكوراً وإناث.. حتى معاناة الأنثى التي تريد التحوّل أكثر بكثير من الذكر المتحوّل جنسياً، رغم ارتفاع النسبة والإقبال على هذه العمليات أصبحت شائعة، إلا أن هناك من يلجأ للتحوّل للهروب من واقع سعياً للتغيير بسبب حياته التي فرضت عليه وهو لا يريدها ويحاول تغييرها ولا تنسى التأثيرات الاجتماعية والضغوطات ولكنها ستجد الجميع ينظر لها أولاً نظرة اشمئزاز وهذا بحد ذاته خطأ كبير لأن المتحوّل رغم النظرة التي ينظرها له المجتمع إلا أنه بنسبة كبيرة يوضع في خانة المجني عليه وليس الجاني.. غير الصعوبات التي سيجدها أمامه في العودة للحياة الطبيعية كتكوين أسرة وإنجاب وعلاقات كما السابق.

ـ قلت ما حصل معي بإيجاز، ولكن أريد أن أعود رجل كما كنت وأنصح كل من يريد التحوّل أن يتراجع عن قراره.. هناك أطباء نفسيين والعلاج النفسي أفضل بكثير من التحوّل.

ـ ولله في خلقه شؤون يا داني.

ـ وأنا أغضبت الله وأسرتي وأتعبت نفسي وذهبت بي إلى الهاوية.

ـ سؤال هل أنت تشعر أنك رجل أم أنثى...؟

ـ صراحة أنا أحب أن أكون أنثى وواجهت الجميع وتقبلت نفسي.

ـ هذا ممتاز ولا داعي للرجوع كما كنت يا داني.

ـ أسميت نفسي دانيا لأنه قريب للاسم الذي يطلق علي قبل التحوّل نادني بدانيا.

ـ ومثل ما وجد في حياتك يا دانيا شخص طيب مثل ماجد ستمر الأيام وستقابلين من لهم نفس صفات ماجد.

ـ لا هو ليس كما تظنين، أنا لم أخبرك ما فعله بي وأنه السبب بوجودي هنا في المشفى.

ـ هو من تسبب بالخدوش التي في وجهك وإقدامك على الانتحار؟

ـ أجل.. عندما طردتني عائلتي من المنزل وجدت ماجد يواسيني ويطبطب عليّ.. أخذ بيدي واحتضن مشاعري التي تبعثرت وداس عليها القاصي والداني وكان كالدواء الشافي.

عشت معه في منزله لأن كل أقاربي رفضوني ولم يقبل أحد استقبالي للعيش معه.

مكثت في منزله مدة ستة أشهر، بحثت عن عمل مناسب ولم أجد فتحمل مصاريفي وملئ حياتي بالدفء والحنان والأمان.

وفي يوم من الأيام دار حديث بيني وبينه وعليه أيقنت أنني أخطأت في حق نفسي وحق أسرتي والمجتمع.

ـ دانيا.

ـ نعم، ماذا تريد...؟

ـ أنت الآن فتاة فاتنة وأنا رجل أعزب أعيش وحيداً معك.

ـ ولكن أنا صديقك داني يا ماجد.

ـ وأصبحت امرأة.

ـ ماذا تريد يا ماجد...؟ كلامك مبهم وغير واضح.

ـ أنا رجل ولدي غريزة جنسية.

ـ وما علاقتي أنا بغريزتك الجنسية...؟

أصابتني الدهشة من حديثه، كان كالمخمور عندما كان يتحدث ينظر لي نظرات غير طبيعية.. قرأت بملامحه الرغبة الجنسية.

ـ أنت فتاة ومن المؤكد أن لديك نفس الرغبة والغرائز الجنسية.

ـ لا يوجد لدي أي رغبة جنسية.. لا أريد فعل الفواحش والحرام مع أحد.

ـ ولكن يا حمقاء من سيلبي ويشبع هذه الغرائز؟ من سيتزوج متحوّل...؟

ـ هذا أمر لا يعنيك هو أمر خاص، إن كان لديك كبت جنسي يمكنك أن تمارس الجنس مع أنثى غيري.. أنا لا أريد.

ـ وهل راق لك المكوث في منزلي بالمجان...؟ أبقيتك هنا لغاية في نفسي.

ـ جيد أنك أظهرت ما بداخلك من مكائد وخداع وكذب.

ـ لم الخوف.. أنت لست أنثى كاملة...؟

ـ أنا أنثى كاملة ورغماً عن الجميع.

ـ لا تمتلكين غشاء البكارة وممارسة العلاقة الجنسية معك أمر سهل لن يتضرر شرفك ولن يكون هناك موانع.

ـ وهل الشرف لديك غشاء بكارة يا أبله...؟ أنا لا أحمل بداخلي مشاعر لك.. مازلت أشعر أنك الصديق كما كنا سابقاً.

ـ (قهقه وردّ) تريدين جواب يا داني أم دانيا.

لا شرف لديك لأنك متحولة لأنثى من دون شرف.. أنت عابرة وعبورها مؤقت ما فائدة التحول لديك وأنت لا تملكين غشاء البكارة الذي تحافظ عليه الفتاة ليوم زفافها لتتفاخر أمام عريسها أنها بكر ولم يقترب منها أحد من الرجال.

ـ أنت رجل بلا شرف ووضيع الصفات.

قمت بضربه وتشاجرت معه فتسبب لي بخدوش على وجهي ورمى بأمتعتي خارج منزله وطردني وهددني إن شاهدني مرة أخرى سيقتلني.

بدأت أراجع ما حصل ولأول مرة تمنيت لو أصابني الزهايمر لأنسى ما سمعت.. تمنيت لو أن الزمن عاد إلى الخلف. أدركت أن العالم بأكمله يدين ما فعلت رغم أن ما فعلته بملء إرادتي. تعلمت في هذه اللحظة الخسارة كم طعمها مر وشعرت بالندم.. أحسست بالوحدة التي كانت صعبة وموحشة.

سيطرت عليّ فكرة الموت لأتخلص من المشاعر التي أتنفسها بداخلي كالهواء.

عادت بي ذاكرتي إلى منزلنا لأمي وأبي وأشقائي.. للأيام الجميلة.. للأمان الحقيقي للحب والاعتناء القابع في زوايا الروح التي كنت أعيشها معهم.

ولكن هذا الحب والحفاوة تلاشت عندما قررت أن أتحول إلى أنثى.. كان حب مزيف واهتمام ممزق فأسرتي لا تحبني.

استحوذت عليّ فكرة الموت فمشيت لساعات وساعات أفكر بطريقة للانتحار.

اشتريت دفتر وقلم.. كتبت رسالة لأسرتي أنني سأذهب إلى من خلقني.. الموت لمن مثلي سيوقد وجدان كل من ظلمني ولم يعطني فرصة بالوجود.

انتظرت حتى أغلقت بوابات الحديقة فقفزت من على السور وأخرجت المشرط من حقيبتي والرسالة واستلقيت على الكرسي ومزقت أوردتي، ولكن الموت لا يريد أن ينهي معاناتي فأدار ظهره ورحل ولم يأخذني معه.

ـ تعقيباً على حديثك بما يخص أسرتك، الأهل عندما يغضبون الغضب عبارة عن مشاعر تخرج من الخوف على أولادهم.. من الخطأ.. أظن أن أمك نادمة وتشتاق لك وتريد أن تراك.

ـ أتمنى هذا الأمر من أمي لأنها عندما تسمع ما سأقول ستغير رأيها.. حاولت معها ورفضت عودتي.

ـ أنا سأتصل بهم أو أزورهم وسأخبرهم بما حلّ بك.

أما ماجد فهو رجل لا يفكّر.. لا تلوميه.. اللوم يقع عليك.. العيش مع رجل أعزب ولا أحد يقطن معكم أمر منافي للواقع الأخلاقي.. هو من النوع الذي سيطر عليه المشروع الذكوري أن الشرف مقتصر على غشاء البكارة.. كم هو غبي لا لوم عليه التربية الأسرية لعبت دوراً كبيراً في تغذية أفكار كل رجل متخلف وقع كفريسة للغرائز الجنسية من دون وعي وتفكير

وإدراك.. هل يا ترى ستتقبل من أريدها أم سترفض؟ وهذا ناتج عن تفكير مطلق للعلاقة هناك حب ومودة واستلطاف فالغرائز خلقت لدى الحيوانات ولكن الله ميزنا عنهم بالعقل والعاطفة والإحساس.

ما عادت سعادتنا قائمة لأننا لا محالة راحلون بين السطور كلما حاولنا أن نعود إلى السطر السابق لنجازف بالكتابة ونمحو الأحزان نجد الكلمات أصيبت بالشلل والمعاني بالنوبات واختفت علامات الترقيم.. سنضع ما تبقى من الماضي في آخر السطر ومع النهاية ننثر تلافيف من النور.

..... القصص في واقعنا كنشرة الأخبار.....

الفصل الرابع
رسالة ممزقة

التعبير الأقوى للنوايا السيئة مازالت مبهمة لأنها كالفعل المشين عندما نقترفها نحاول تبريرها والاختباء خلف إحساس ما شعرنا به هو مجرد تنفيس عما بداخلنا.

والنوايا الصادقة نادراً ما نجدها لدى الكبار في العمر لأنها صفة ملازمة للأطفال.. فلنحاول أن نكون أطفالاً في قلوبنا وأرواحنا وبصدق الأحاديث فبرمجة العقل الباطن لأسلوب حياة إيجابية ليس بالمستحيل والكلمات المنقية والشهية لنبوح بها ليست مستحيلة وأيضاً تلفيق القصص الواهنة ليست مستحيلة.

إن أردنا أن نفعلها فهي سهلة وإن أردنا ألا نفعلها سنجدها صعبة.. فلا يوجد طريقة لنمحو الشوائب والأخطاء..

ربما نعتذر لأحد أخطأنا بحقه يوماً ما وظننا أنه هو المخطئ.

سنعطي لأنفسنا الفرصة لنغيّر النمط الذي نعيشه في الحياة... فهناك أمل...

ـ هل بقي أحد في الخارج.

ـ لا يوجد أحد.

ـ اذهبي إلى منزلك.. سأبقى بمفردي لبعض من الوقت.

ـ لو سمحت دكتورة أريد إجازة ليوم غد فقط.

ـ ما السبب يا سارة...؟

ـ غداً هو أسعد يوم في حياتي.. سيعقد قراني.

ـ مبروك.. أظنك ستحتاجين لإجازة أسبوعية.

ـ ولكن.

ـ الإجازة مع راتب وهناك هدية لك.

ـ شكراً جزيلاً.

ـ هذا أقل ما أقدمه لكِ يا سارة.. كوني بخير.

انتهى وقت العمل في العيادة.. بقيت الدكتورة صباح بمفردها داخل العيادة تتفقد بعض الأوراق..

وبعد خروج السكرتيرة سارة من العيادة دخلت فتاة ترتدي معطفاً أسود طويل، تضع غطاء على شعرها.. فسمعت الدكتورة صباح صوت طقطقة قدمين فخرجت لغرفة الاستقبال.

ـ أهلاً وسهلاً.

ـ أعتذر أتيت من غير موعد وفي وقت متأخر.

ـ لا بأس.. تفضلي.

ـ أريد منك أن تفحصيني.

ـ الحقي بي لغرفة الكشف.

ـ هل يوجد أي التهابات...؟

ـ لا يوجد لديك أي التهابات حتى أن أمورك سليمة ولا يوجد حمل.

ـ لست متزوجة وأعلم أنه لا وجود للحمل أنا مطلقة منذ خمس سنوات.

ـ أمورك الطبية في أعضائك التناسلية سليمة.

ـ أريد منك طلب صغير وأعلم أن طلبي غريب من نوعه وساذج، ولكنه سيغير نظرة أسرتي والجيران والمجتمع.

ـ ما هو هذا الطلب...؟

ـ أريد إجراء عملية ترقيع لغشاء البكارة.

ـ ولكنك مطلقة، وعدم وجود الغشاء لديك أمر طبيعي لأنك تزوجت سابقاً.

ـ ولكن الغشاء سيحميني من الإهانات بالنظرات والكلام الجارح.

ـ سأوضح لك عدة أمور ولكن أنت من أين...؟

ـ أنا من منطقة قريبة من دمشق.

ـ البيئة التي تعيشين فيها وتربيت فيها محافظة جداً.

ـ لا يوجد في قاموس الحياة لديهم تحفّظ بل تعصّب لأفكار مزعجة وتقاليد مدمّرة، حتى إن بحثت عنها في الأديان لا وجود لها.

ـ أتّفق معك، حتى الأديان لا تطبّق بشكل صحيح، يطبّقون ما يعجبهم والباقي لا يعنيهم لأنه لا يناسب الأفكار والعادات كما قلت، وفي الحالتين الأديان السماوية بريئة من أي فعل يخالف الضمير والحب والإنسانية.

لدي من الوقت نصف ساعة وسأسمعك، ولكن لن أوافق على طلبك.

ـ لماذا..؟ أريد الراحة النفسية...؟

ـ وهل الراحة بنظرك وتفكيرك هو ترقيع غشاء بكارتك...؟ هل اتهمك أحد بشرفك...؟ أم لك علاقة غير شرعية...؟

ـ أرجوك يكفي ما تعرضت له من مواقف انتقاص لكرامتي وقهر وقمع مع إذلال وشتائم أرهقتني جداً.

ـ يبدو أنك مختلفة عن مجتمع تسوده المرجعيات الفقيرة بالثقافة الاجتماعية، حتى لو عدتِ عذراء لن تتغير نظرتهم وسيبقون كالسابق لأنك أعطيتِ أهمية لما يقولونه.. لا تهتمي، التجاهل هو الحل. فالبيئة الحاضنة لكيانك المهمش لن تتغير، تربيتهم مبنية على حدود عقيمة.. الفتاة للجنس والإنجاب وتربية الأطفال.. عليها ألا تشعر، ألا تبدي رأيها وأن تقول كلمة حاضر فقط.. ممنوع عليها التحرر من شباك النوايا السيئة.. إن ضحكت لماذا تضحك؟ إن قالت وإن فرحت وإن عشقت وإن أرادت أن تتعلم... لكل هذه الأفعال يضعون أمامها كلمة لماذا...؟

وإن أبلغت وظهرت عليها ملامح الأنوثة والدورة الطمثية وبدأ الثدي لديها يكبر يزوجونها لأول شاب يدق بابها بحجة أن زواجها سيحميها من الزمن، والرجل سند لها وسيبقيها معزّزة مكرّمة لآخر يوم في حياتها، فلا داعي للعلم والثقافة، لا داعي لأن تتعلّم حرفة.. الزواج هو الحل فلربما فاتها القطار وأصبحت عانساً، مع اعتراضي على هذا المصطلح الذي له معانٍ أخرى وأسباب أخرى ودلالات أخرى.

ـ لكن الزواج والأطفال هم الحياة.

ـ لا أعترض على ما قلتِ ولكن بعد أن تبني الفتاة العمود الخاص بها على أرض الواقع من ثقافة.

ـ هناك أمور أهم من الزواج والإنجاب، علينا أن نهتم بها وبعدها يأتي الزواج كي يكمل حياتنا.. رغم التطوّر والانفتاح ولكن مازلنا نفكّر تفكير الجاهلية، والنسبة القليلة التي أنصفت الأنثى، وهذه النسبة ليست من المثقفين أو غير المثقفين بل هم من أسمّيهم العقلاء والمدركون للخطأ.

ـ في بعض العائلات التي أعرفها وقريبة لنا، يؤخذ من الأنثى حتى ميراثها الشرعي.

ـ لا يحق لهم، والأنثى من خوفها لا تطالب بحقها كاملاً، حتى شرع الله لا يطبقونه وهو للذكر مثل حظ الأنثيين ولا جدال عليه.

والآن أخبريني ما هي المواقف التي تعرضتِ لها... كمطلقة...؟

ـ قبل أن أخبرك عن المواقف سأتحدث عن زواجي من طليقي الذي حوّل حياتي كحياة النملة.. كصندوق أسود مظلم.. كرسالة ممزقة من القرون القديمة لم يعثر عليها مؤرخ بالسرد المنهجي المتتالي والبحث في الأحداث الماضية أو عالم آثار مختص بالبقايا المادية التي خلفها الإنسان.. لم يكتشفني أحد...؟ لم ينظر لأمري أحد...؟ أعيش الوحدة... رغم وجودي مع أسرتي أعيش العزلة.. رغم مشاركتهم كياني ومصيري ـ تزوجي.. تطلقي.. نامي.. إصحِ من نومك.. لا تذهبي أو اذهبي.

طليقي رجل غامض كان يعاملني كأني جارية.. يأتي آخر الليل من عمله يأكل ويمارس معي العلاقة الجنسية التي لا أشعر أنها علاقة جنسية لأنه لا يهتم بالجو المحيط أثناء الممارسة الجنسية.. فرغبته حيوانية، لا يغازلني ولا يتحدث إلا

عن ماذا نأكل غداً...؟ ماذا تطبخين..؟ هل تريدين المال...؟ وهل سيأتي إليك أحد من الجيران أو الأقارب أو أسرتك...؟ ممنوع عليّ الخروج بمفردي.. العالم الوحيد الذي كنت أثقّف نفسي من خلاله هو الإنترنت والتلفاز.

ـ أنت تريدين الرومانسية الحسية والمداعبات، وبالمقابل الجنس لديه رغبة من دون عواطف.. هل حاولتِ أن تخبريه بما تريدين.

ـ حاولت كثيراً ولكنه لم يدرك ما أريد.

ـ ما سبب الطلاق...؟

ـ الخيانة.

ـ وكيف علمتِ بخيانته...؟

ـ حرمني من الحب الذي في قلبه كان لفتاة أخرى.. شاهده شقيقي وأخبرني، حاولت أن أفهم لماذا أغلب الرجال يعامل زوجته بنرجسية وصاحبته بحنيّة...؟

ـ يتعلق الأمر بالبيئة والثقافة لدى الطرفين، والتربية التي تلقّاها الرجل لها معايير إما أن تجعل منه رجلاً صالحاً لكل

مكان وزمان ومع أي مرحلة مقبلة سيعيشها، أو أنها ستجعل منه رجلاً فاشلاً.. وطليقك لو تزوج مرة ثانية سيعامل زوجته الثانية بنفس الطريقة، لأنه تربى وشاهد هذا الأمر بمعاملة والده لوالدته بنسب متفاوتة حتى لا أعمم.. ربما لديه اضطراب نفسي لأمر ما حصل معه منذ الطفولة، أما سبب منعك من الخروج بمفردك فلأنه لا يثق بنفسه، فالمسموح له ممنوع لك، ولأن قلّة الثقة في عقله وجدها فيكِ، يظن أن الخيانة موجودة في نفسك مثله تماماً.

لأي مرحلة تعلمت في المدرسة...؟

ـ للثانوية، كنت أريد دخول الجامعة ولكنهم زوجوني، وممنوع في أسرتي أن تكمل الفتاة تعليمها، وأيضاً ممنوع في أسرتي أن تقول الفتاة كلمة لا إن قال والدها نعم لأمر يخصّها.

ـ هذا حال أغلب المجتمعات الشحيحة بالثقافة والانفتاح الفكري للأساسيات العلمية.

ـ حتى يوم زفافي كان مثيراً للسخرية...! بعد انتهاء زفافي لم أكن وحيدة في منزلي.. خلف باب غرفتي الخاصة كان يوجد زفاف آخر وحشد لأمر مختلف.

ـ (قهقهت وقالت) كيف، لم أفهم...؟

ـ الحشد مؤلف من والدته ووالده ووالدتي ووالدي وشقيقات زوجي وشقيقاتي والعمّات والخالات والجيران..

ـ أووف.. ولمَ...؟

ـ للاطمئنان على نقاط الدم التي انهمرت بعد فضّ غشاء البكارة لديّ.

ـ أمر مضحك ومؤسف... الثقة بين البشر معدومة لهذا الحد...؟!

ألا يوجد لديك أطفال...؟

ـ لا لم يتم هذا الأمر وهذا جيد.. لا أريد أن يجمع بيني وبين طليقي نزاعات لأجل الأطفال.

ـ هل جرّبت أن تعملي...؟

ـ بعد طلاقي بسنة تقريباً انتقلنا للعيش في المدينة، وسبب الانتقال لأجل شقيقي المدلل والأهم والمفضل في أسرتي.

ـ لم أفهم هل هو من فرض عليكم الانتقال للعيش في المدينة...؟

ـ لا، لم يفرض الأمر، ولكنه نجح في الثانوية العامة وقُبِل في كلية الهندسة، ووالدي ووالدتي يريدون الاهتمام به، رفضوا فكرة أن يعيش بمفرده في المدينة ليكمل دراسته.

الحسرة بداخلي كانت كالسكين التي تطعن الفيض المتراكم من الخيبات التي عشتها... حلم حياتي كان أن أتعلم، لربما أصبحت أفضل من شقيقي.

ـ التمييز بالمعاملة في أسرتك تعاني منه أغلب الفتيات ولكن يمكنك أن تعودي للدراسة.. تماثلي بالقوة وتحفزي بالإرادة والإصرار للوصول لما تريدين.. الحلم الذي تريدين الوصول إلى أهدافه ليس بالمستحيل.

ـ الحديث مع أفكارك ممتع جداً.

عندما أتينا إلى المدينة عادت حياتي كما كانت في منزل زوجي وأسرتي.. لا خروج إلا للضرورة القصوى.. أصبحت أشعر بالملل والاكتئاب.. لا طعم ولا رائحة ولا ألوان زاهية في أيامي.. الأيام تتشابه، النهار لا ينتهي إلا بالتنبيهات الممزوجة بالحِكم والمواعظ، والليل ساكن وهادئ، وعندما أخلد للنوم أذرف بعض الدموع التي تواسي قلبي ببعض من الأمل.. أطلب

من عقلي أن أنام وأشاهد الحياة كما أريد في أحلامي فلا أريد مشاهدة الكوابيس المتقلبة مع الأسى والتعب.

فكّرت كثيراً ماذا أفعل لأقنعهم أن أخرج من المنزل إلى الكون.. إلى المجتمع.. وأريد أن أعلم ماذا يحصل بين الجدران في المدينة من قصص؟ ما هي الدنيا في الخارج بعيداً عن الأسرة والجيران.. بعيداً عن أفكارهم وسيطرتهم؟ ومع الإلحاح وافق والدي على أن أعمل في شركة للمقاولات كسكرتيرة استقبال ولكن بعد أن تم البحث والتحرّي عن سمعة المدير والشركة والموظفين.

كنت أستيقظ باكراً في قمة نشاطي.. أذهب إلى العمل.

ـ ظننتِ أنك وجدت سبيلاً للحرية الشخصية المسلوبة.

ـ أجل السعادة التي كنت أعيشها بقرار العمل كانت مؤقتة.

ـ أخبريني بأسوأ الأمور التي مررت بها.

ـ طلب مني المدير أن أكون أنيقة في هندامي لأن على موظفي الشركات التقيّد بالبرستيج.. أعجب المدير بعملي المتفاني والتقيّد بالمواعيد ودقّة العمل لديّ والسرعة التي

تعلّمت فيها كل ما هو مطلوب مني كسكرتيرة.. ومدير الشركة كان رجلاً في منتهى التقدير والاحترام والنزاهة.

ـ من كان سبب إزعاجك في العمل...؟

ـ الموظفات السابقات بدأن ينشرن الإشاعات أنني مطلقة ولهذا السبب المدير يحبني أكثر منهن، فوصل هذا الخبر لزوجته، وفي يوم من الأيام دفعتها غيرتها وشكّها إلى المجيء إلى الشركة لمشاهدتي وطردي من العمل.. رغم أنها ساحرة الجمال وأنيقة جداً وراقية.

ـ هذا السبب لا دخل له بالثقة الداخلية للمرأة وثقتها بزوجها.. الأمر نسبي ومتفاوت.

ـ قالت لي وهي غاضبة وكأنني سلبتها زوجها وعقدت عليه قراني أو قمت بخطفه ووضعه في زنزانة محتجز أسير لديّ:

ـ أنتِ..

وقفت من على الكرسي وأنا في قمّة الدهشة.. قالت لي: أنتِ رغم معرفتها باسمي.

ـ لو سمحت اسمي دعاء.

ـ اسمك دعاء أم اسمك بلهاء..

ـ احترمي نفسك أرجوك وأخفضي صوتك.. لا يحق لك أن تشتميني بهذه الطريقة.

ـ وأنت من..؟ مجرد سكرتيرة وضيعة ساقطة تحاول رمي شباكها على مديرها.

ـ المدير.. لم أجد مثل أخلاقه وصفاته الحميدة، ولا يحق لك أن تتهميني بأمر لم تشاهديه بنفسك.

ـ مممم، أنت مطلّقة، والمطلّقة الأمور لديها سهلة.. لا أريد أن أراك هنا بعد اليوم.

ـ علم زوجها بالأمر واعتذر مني ولكنه رفض وجودي في الشركة..

لم أخبر أسرتي بما حصل، ولفّقت لهم كذبة أن المدير اكتفى بالعدد الذي لديه من الموظفين وصرفني.

ـ يا لها من سيدة غبية وتفكيرها محدود، من تريد ممارسة الجنس بالحرام ستمارسه إن كانت فتاة بكراً أم مطلقة، ومن تريد الإيقاع برجل في حبالها ستراوده بجميع الوسائل لتوقع

به، هذا أمر ليس بالصعب ولا بالسهل طبعاً لأن الرجال لا يتشابهون.

ـ وبعد أن عدت إلى حياتي السابقة أصبحت أشتري الكتب من الروايات ودواوين الشعر والقصص والأبحاث لأقرأ وأثقّف نفسي وأملأ الفراغ الذي أعيشه كل يوم، فأحببت الكتابة، بدأت أدوّن كل يوم ما أشعر به وأمرّ به وأحاول أن أكتب بعض من الخواطر والأشعار، فوجدت الأمر مفيداً أن أبوح بكل ما يزعجني على الدفتر، فأخرج من المنزل كل يوم إلى الحديقة القريبة من منزلنا لأقرأ لأكتب، وبهذه الطريقة أحاول نسيان الاحتقار والاستخفاف بوجودي كإنسانة لها حقوق ومتطلبات وعليها أن تعيش مثل باقي البشر.. ابتعدت عن البشر وجعلت من الكتب والدفتر والقلم أصدقاء، ولكن يبدو أن البشر لا يريدون أن يدعوني وشأني.

كان لي جارة لديها شاب مراهق مستهتر لا يفقه شيئاً بالحياة سوى اللهو والتسلية مع الفتيات.. حاول أن يتحدث معي ورفضت، فبدأ يراقبني ويلاحقني بحجة أنه يحبني.. رفضت العلاقة معه.. أخبرته أنه ليس بالرجل الذي أحلم به وأريده، ولكنه أصر أن لا يبتعد.

ـ ربما هو صادق.. أعطه فرصة.

ـ لا يا دكتورة، هو يريد أمر مختلف عن العلاقة الصادقة للارتباط وسأخبرك ما دار بيننا من حديث.

ـ اسمع يا مهند إن لم تبتعد عني سأخبر والدتي لتخبر والدتك.

ـ يا الله أخفتني.. سأذهب مسرعاً وأتخفّى عن الأنظار من الرعب.

ـ افهم يا ولد.

ـ لست ولد أنا رجل.

ـ رجل أم ولد.. أنت صغير لم تتجاوز العشرين عاماً وأنا أكبرك بتسع سنين، والمشاعر لديك غير مستقرة... ستتغير.. ما تفعله ليس بالحب.. افهم وابتعد عن طريقي ولا تزعجني مرة أخرى.. لا أريد الحديث معك.

ـ من تظنين نفسك.. لم كل هذه العنجهية والتكبّر.. الغرور لا يليق بكِ...؟

ـ هذا الأمر لا يخصّك أنا حرّة بنفسي.

ـ تريدين إقناعي أنك لا تريدين أن تستمتعي.

ـ ماذا تقصد...؟

قمت بصفعه على وجهه ولم أعد أرى شيء.. العالم يدور من حولي.. يدور مسرعاً.. شاهدت ولأول مرة أمامي شباكاً تشبه شباك العنكبوت.. شباك أسرتي وشباك زوجة المدير وشباك ابن الجيران.. شباك تريدني أن أقع فيها لتلتف الخيوط على جسدي ويتم أسري.

بعد أن قمت بصفعه قال:

ـ أنت مطلقة لا يحق لك الاعتزاز بنفسك لأنك لا تملكين غشاء البكارة.. حتى الزواج سيكون صعب عليكِ.. ستتنازلين عن تفاصيل لا تتنازل عنها الفتاة البكر.

ـ تجاهلت ما قاله ومشيت مسرعة إلى منزلي والغضب يتملكني.. ما قاله لي جعلني أنهار.. الطاقة السلبية التي احتلّت خلايا جسدي من حديثه هدمت كل ما قرأته في الكتب لأنه واقع حقيقي أحاول الهروب منه ولكنه يعود ليوقظني من غفلتي التي أعيشها.

ـ للأسف ظننتك أقوى لأنك منفتحة.. لا تدعي كلام مراهق لا يفهم من الدنيا الألف والباء وتاء أن يسيطر على عقلك.. أنت لم تخطئي.. ما فعلته صحيح.

بسبب تصرفات بعض المطلقات السيئة جعلت من المجتمع ينظر لكل مطلقة على أنها سهلة المنال وأنها تريد العلاقة الجنسية وأن غشائها غير موجود والممارسة معها سهلة ومن غير خوف أو شروط.. أثبتّ له ولزوجة المدير ولأسرتك أن مفهوم الشرف أكبر بكثير من الغشاء.. الشرف في العقل الذي تفكّرين به لتميزي الخطأ والصواب.

ـ ولكن أسرتي لم تتغير كثيراً.. معاملتهم كانت سيئة.

ـ ولكنهم شعروا أنك إنسانة ومن الخطأ حبسك في المنزل.

ـ والمراقبة الشديدة التي أعيشها.

ـ سيتغيرون مع الزمن.. الوقت والضغوطات تغيّر المواقف إن استطعنا أن نتحكم بها.

ـ حاول بهذه الفترة طليقي أن يتواصل معي ولكني رفضت الحديث إليه وطلبت منه أن يبتعد عني... العودة للسجن الذي

عشته معه يشبه السجن الانفرادي.. وأتمنى أن تتغير أسرتي لأنهم طيبون.

ـ وهل تريدين بعد أن سمعت منك بعض المجريات التي حصلت معك بترقيع غشاء البكارة...؟ لست بحاجة لهذا الأمر لأن ما سمعته من قوة وإصرار وعزيمة صادقة النوايا..

استمري في حياتك على ما أنت عليه.. أرى في عينيك شعاع من الأماني الرائعة.

ـ شكراً جزيلاً.. حديثك يشعرني بالراحة.

ـ وفي بادئ الحديث قلت لك أنني سأوضح لك بعض الأمور الطبية النسائية.

ـ تفضلي.

ـ لأنك لا تمارسين العلاقة الجنسية الغير شرعية ولأنك لم تنجبي.. الغشاء لديك لم يتمزق كلياً لأنه عبارة عن حلقة مرنة ورقيقة من النسيج الضام تتواجد في فتحة المهبل.

لا تهتمي لهذا الأمر وانطلقي وثابري للوصول إلى مرادك وعيشي أيامك كما تحبين.. هناك الكثير من المطلقات يمارسن

أعمالهن ويدرسن ولهم نفس حقوق الفتاة البكر، والطلاق يكون عائقاً إن جعلنا من المصطلح والمعنى عائق.. إن استسلمنا للأمر الواقع.. الدنيا لم تنتهي.. إن افترقنا عن الزوج حتماً سيأتي البديل، وبمرور الوقت وبعد خوض التجارب سيكون الاختيار أفضل لأننا خلقنا لنتعلّم ونعلّم.. لنأخذ ونعطي مدى الحياة.

أتى إلى هذه العيادة الكثيرات من أمثالك لهم نفس المعاناة ولكنهم تخطّوا الصعاب.. إحداهن لم تستطع أن تحصل على حريتها الشخصية إلا بعد وفاة أبويها وزواج أشقائها.. أغرقتهم الدنيا بالهموم فلم يعد لديهم الوقت الكافي لملاحقة ومراقبة شقيقتهم المطلّقة.. عدا العبارات والأسئلة المؤلمة والخاصة التي تقال للمطلقة: الله يعوض عليكي برجل أفضل ـ ما سبب الطلاق...؟ مع نظرات الشماتة والاستهزاء وكأن كل أنثى خلقت ومصيرها بيدها.. لن أقول إنه الحظ العاثر الذي رمى بهن بسهام الطلاق، لأن الحظ مجرد كلمة اخترعها البشر لتبرير الأفعال والتخفيف من المصاعب ليقولون: سيكون حظك في المرة القادمة أفضل لا تستسلم.

الحظ يصنعه العقل المدبّر لحياتنا.. برأيي هو كالألوان الأبيض والأسود، إما أن نختار الأبيض أو نختار الأسود.

ـ أعلم أنني لست الوحيدة التي تعاني من أسرتها وسأحاول بكل ما أوتيت من قوة الوصول لما أريد، ولن أسمح لأحد أن يتخطّى الحدود التي تربينا عليها في عالمنا العربي.

ـ أحسنتِ يا دعاء.

هناك من المطلقات من عاشت قصة حب وتزوجت فارس أحلامها وكانت مطلقة بعد أسبوع من زفافها.

وأخريات كان لهم حياة مختلفة مع عائلاتهن.. لم يشعرن للحظة أنهن مطلقات.. على العكس عاشوا حياة جميلة وهادئة مع عائلاتهن بعد عودتهن مع لقب مطلقة.. بل عادوا أقوى وأنضج واستمروا ونجحوا في تحقيق ذاتهن وتزوجوا للمرة الثانية وكان زواجهن الثاني الأمثل والأنسب.

الخروج من عنق الزجاجة بمحض الإرادة بعد أن تحطمت بالانفصال هو الأفضل والأعظم.. كالفتيات اللواتي يذهبن بأنفسهن للطلاق.

ـ تقصدين المخالعة.

ـ أجل.

ـ تشبيه جميل عنق الزجاجة والمخالعة نعمة.

ـ يحتاج فقط لشكيمة وصلابة مع الطاقة الإيجابية والشجاعة.

ـ مرّ الوقت مسرعاً.. أتمنى أن يكون شبح الطلاق من الجوانب السلبية ابتعد عن أفكارك.

ـ أظنه لن يأتي مرة أخرى ومهما حاول وبأي موقف سأتعرض له سأبعده عن طريقي لأن حديثك أثلج صدري وزُرع في خلايا عقلي.

ـ أتمنى من الله أن تبقين كما قلتِ.

ـ لدي سؤال أخير.

ـ تفضلي.

ـ ما هو سر النجاح في محاور شخصيتك البنّاءة والهمّة العالية التي تعتلي ملامحك دكتورة؟

ـ هذا سر من أسراري.. مممم.. ربما ستعلمين السر بعد خروجك من هنا أو علمت به من الحديث الذي دار بيننا ولم تنتبهي.

ـ آها.. فهمت.. والآن سأذهب إلى منزلي وسأزورك.. هل لديك مانع...؟

ـ لا مانع لدي أن تزوريني.. على الرحب والسعة.. وكوني واعية واعية فقط.. مع السلامة.

الطريق الوحيد الذي أبعد البشرية عن الحقائق هو الجهل وعدم التمييز بين الصادق والكاذب وبين الخير والشر وبين الحب والكره.. فتراكم الهموم زادت على أوجاعنا أوجاع.. أصبحنا بعيدين جداً عن الأمان والوعي والإدراك في الإحساس والتمييز بين الوعي والإدراك.. فهناك اختلاف كبير بينهما رغم الدلالة في المعنى اللغوي للكلمتين، إلا أنهما بقمة الاختلاف في الشرح.. وجود الوعي مع الإدراك في آن واحد هو الوصول إلى ذروة الحقيقة التي نبحث عنها.

لأن الوعي مرتبط بالأمور الروحية للوصول إلى نقطة الإدراك ولا عوائق لحدود الفهم والمعرفة.

فحالة الوعي عميقة تجعل من أفكارك محلّل لما سيحصل مع اليقين التام بأنك على صواب في الاختيار.

فقبل كل أمر الوعي هو أساس ومكمّل للإدراك لتبدأ ثورة المعرفة، والمعرفة هي امتداد لمعرفة الحقائق في الواقع الذي نعيشه لنتخطّى الأسوار والحواجز والعراقيل.. فلا يوجد شيء من دون سبب..

..... الطلاق حياة جديدة.....

الفصل الخامس
رجل وامرأة

الأحاسيس التي سطرت بأجمل المفردات.

هل يا ترى ستبقى حية ترويها المشاعر أم لها وقت محدد وتموت مثل موت الإنسان..؟

هل هناك حل لنعيدها كما كانت...؟

أم أنها علقت مشنقتها على حافة الطريق وغرقت بالتيه والدموع ودنا منها بموت رحيلها من كتبها على أوراق الزمن وحفر لها حفرة عميقة ووضع على شاهدة القبر الزهور مع قبلة وداع وآهات وحسرة.

أم بقيت وحيدة تنتظر من أحبطها وأودى بها إلى الانتحار تستجدي الرحمة والشفقة ليأتي أحد ما ليضعها داخل الحفرة ويقدّم التعازي المنافقة اللئيمة المكتظة بالذكريات الجاحدة.

رجل وامرأة يبحثان عن الحب.

والحب براء من الذين شوهوا الكلمات التي كتبت من أعظم الشعراء لتمجيده.

وبراء من الذين أفقدوا خجل الروايات العاطفية وحوّلوا معانيها القيّمة إلى أكاذيب.

وبراء من الذي استغلّ الحب للوصول إلى الغايات الدنيئة.

وبراء من العواطف المزيفة ومن مكابر وظالم.

وبراء من فراق أعمى شاخ قبل أوانه وباع أصدق العبارات.

فمقولة (دسّ السمّ بالعسل) الواجهة التي يعتمدها أغلب البشر.

لا تنتظر أو لننتظر لنشاهد المشهد الأخير من المسرحية لينسدل ستار النهاية وتنتهي الأدوار لنعيد كتابة المسرحية الجديدة لها أبطال مختلفين بأحداث جديدة ومعاني جديدة..... رجل وامرأة.

ـ الجو لطيف اليوم.

ـ أجل والشمس لطيفة جداً.

ـ بدأ الربيع وتفتحت الأزهار.

ـ أعشق هذه الأجواء الممزوجة بالهواء العليل.

ـ ومع بداية الربيع الجميل سأغلق العيادة.

ـ لماذا؟ والمرضى...!

ـ السكرتيرة سارة ستتكفل بإخبارهم بالحضور إلى المشفى.

ـ ما السبب...؟

ـ السبب واضح ولا يحتاج للنقاش يا دكتورة سمارة.

ـ ما رأيك بعد أن تنتهي من التدريب أن تستلميها لتكون العيادة الخاصة بكِ.

ـ لا مانع لدي ولكن أثرت فضولي.. ما سبب هذا القرار دكتورة صباح...؟

ـ ما أشاهده وأسمعه يحتاج للصبر.. الفتيات اللواتي يأتين إلى العيادة.. وما يحدث من أخطاء.. تعبت من سماع القصص التي أرهقت النفس لدي.. لا أنام.. لا أشعر بالراحة.. فتيات صغيرات في المرحلة الإعدادية حوامل يأتون إليّ مع أمهاتهن بعد إجهاض غير مشروع طبياً يعاقب عليه الدين، لإجراء عمليات ترقيع لغشاء البكارة، وهذا الأمر يزعجني جداً جداً،

وعندما أرفض إجراء عملية الغش والخداع يتوسلون، وضميري المهني يمنعني من إجراء عمليات كهذه..

ما هذا الجيل الذي لا يفكّر إلا بالعلاقة الجنسية بحجة الحب..؟ أغلب الذين يأتون إلي تحت سن الثامنة عشرة ونادراً ما تأتي فتاة في الثلاثين من عمرها.

ـ لا تلومي الفتيات يا دكتورة، الشبان أيضاً لهم ذنب لما يحصل من تفشّي ظاهرة أن الحب يبرر الوسيلة التي يحصلون من خلالها على غايتهم الجنسية.

ـ لا يعرفون معنى الحب.. الحب هو من أرقى المشاعر الموجودة في قانون الكون.. الحب خلق من الأخلاق الراقية والنبيلة.. الحب ثقة.. الحب أمان.. الحب أن لا تأخذ من الذي أحببته أغلى ما لديه ولا تتحمل المسؤولية.. الحب إحساس صادق يولد منه مشاعر الحنان والطيبة والغفران والإخلاص.. ما يفعلونه يشبه اللعبة لدى البائع، نتمناها، وعندما نحصل عليها ونشعر بالضجر نرميها في القمامة.

ليتك تقرأين صندوق الرسائل التي على حسابي على سوشيال ميديا من أسئلة مخجلة جداً وجميعهن يردن

الاطمئنان على غشاء بكارتهن لأنهن مارسن العلاقة الجنسية الغير شرعية أو مارسن العادة السرية وهي خطأ فادح، أو عند ممارستهن لبعض الألعاب الرياضية القاسية.. والجواب دائماً يكون: عليك بزيارة اختصاصي بالطب النسائي للفحص والاطمئنان.

وهناك من يأتي مع خطيبته لأنه يريد أن يتأكد من عفّة وشرف شريكة حياته.

ـ موقف مهين للفتاة.

ـ والفتاة راضية وكرامتها محفوظة وخاصة بعد أن أقول إن الغشاء سليم ومن دون ندبات أو جروح.

ـ الانحطاط الأخلاقي الذي يمر به الشباب وما يعاصرونه من الفتيات حوّلهم لأشخاص معدومي الثقة بأنفسهم وبالفتيات عندما يريد أن يرتبط.

ـ في بعض الأحيان لا ألوم الرجال.. اللوم يقع على التربية المنزلية والوعي الخاص للفتيات من الأمهات.. الفتاة يمكنها أن تجبر الرجل الذي فضّ بكارتها على الزواج لأن القانون سينصفها، ولكن هناك قيل وقالت وقال.. سيجلدونها بالأقاويل

والفضيحة لأنها ستكون في خانة الاتهام المباشر (ساقطة) فرّطت بنفسها. في بعض الأحيان أجد الأمر معقّد وصعب لأننا في مجتمع شرقي يميّز بين الرجل والمرأة.

إن سهر الرجل هذا مسموح له إن تأخر بالعودة إلى المنزل وإن تحدث لصديقاته أو حبيبته وإن خرج من المنزل في وقت متأخر وإن مارس العلاقة الجنسية وإن تحدّث بما يريد وإن أبدى برأيه كما يريد.. فهذه الأمور عادية جداً في مجتمعاتنا الشرقية.. ولا أعمم.. فهناك عائلات لا تقبل بهذه التصرفات أن تصدر من الشبّان وهناك من يعجبه ويقولون هذا تحرّر، ولكنه ليس بتحرّر.

الحرية التي يتميز بها الرجل الشرقي زادت من السلوك والأخلاق الهابطة اجتماعياً..

لأنك رجل يحق لك ما لا يحق للمرأة.. لأنك رجل يحق لك السفر والعشق واللهو وفعل ما تريده.. حريتك الشخصية ملك خاص بك.

العدل والمساواة الذي تحدث عنه الكثيرين من الكتّاب والشخصيات المثقفة وأبدعوا في شعاراته الرنّانة لم تكن مفيدة

بالشكل المطلوب لأن بعض الفتيات والنساء بالغن في الحرية الشخصية التي يطالبن بها، وإلى الآن في بعض المجتمعات لو نادى رجل زوجته باسمها مثلاً أمام الناس أو علم أحد باسمها منه فسوف يجلب السخرية له ولها، مع أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان ينادي زوجاته بأسمائهن أمام الصحابة.

ولهذا السبب تجدين أغلب الشخصيات التي تعتبر أن مناداة المرأة باسمها هي ثقافة (الخلل والإنكار) يحبذون مناداتها باسم أبيها أو شقيقها أو بالاسم الدال على عائلتها أو أم فلان.

ـ الثقافة التقليدية الغير موجودة إلا في العقول الناقصة.

ـ الرجل يا سارة هو الأول وهو من خلق هذا التمييز حتى لو كان صائباً أم مخطئاً.. والمرأة تندرج على قائمة الأفعال والأسباب والحقوق الممنوعة، حتى في بعض المجتمعات العربية لا تأكل المرأة حتى يشبع الرجل.

المراكز الوظيفية المهمة للرجال لأن المرأة بمنظورهم ناقصة الأهلية ولكنهم عندما يعشقون ويتمتعون ويخدعون باسم الحب ويغرقون المرأة بالحديث المعسول ليست ناقصة رغم

علمهم التام أن ما يفعلونه هو من أنواع الظلم إن وضع أساساً بتغير التمييز بين الجنسين يقوم على ما يمتلكه الفرد من مهارات وقيم وعلم ممثلاً بالقول والفعل سيصبح الاكتساب بالمساواة على الطريق الصحيح والأمثل للطرفين.. كما قال الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم (للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن) صدق الله العظيم.

ـ الأسباب البيولوجية والنفسية التي خلقها الرجل من أنانية هي السبب.

ـ لم أعد أعلم يا سمارة من هو السبب برفض المرأة ككيان خاص رغم أن المرأة هي الأم والأخت والحبيبة والزوجة فوجود امرأة لها استقلالية ذاتية ومادية وسكنية بعيداً عن حياة واستقلالية الرجل مازال أمراً مزعجاً ولا يتقبله أحد إلا بحالات معينة.

لاحظي أن المرأة يمكنها أن تكون الأب والأم وربة المنزل وسيدة أعمال ومحامية ودكتورة ومهندسة وعاملة وأديبة وقاضية ومدرّسة وعالمة ومقاتلة أبية والكثير الكثير.. وصلت لجميع المنابر العلمية والقومية والثقافية.. ولكنهم وبرغم

الاجتهاد الذي وصلت إليه يحاولون وضعها على حاشية الكتاب أي أنها فقط لتعليق الملاحظات الثانوية والبيانات.

ـ فهمت من دون أن تقولي.. المرأة هي المكملة لهم.

ـ أحسنتِ يا سمارة.

ـ ذاكرتي الآن عادت بي إلى جميلة الفتاة التي أتت إليك مع والدها وأشقائها إلى العيادة.. ما الذي حصل معها؟

ـ آها.. الفتاة التي تبلغ من العمر الخامسة عشر من عمرها.. اتصلت بأسرتها لأطمئن عليها وما دفعني للاتصال الألم الذي شعرت به تجاهها، شعرت أن هذه الفتاة ستتعرض لأمر ما.. أخبرتني والدتها أن جميلة ماتت.

ـ قتلوها...؟!

ـ تم حبسها داخل المنزل في غرفتها ومنع والدها الزيارات إلى منزله لكي لا يشاهد أحد بطنها المنفوخ من الحمل.. ممنوع على جميلة الحديث أو الخروج من غرفتها.. ربطت بسلاسل من قدميها.

ـ وكيف ماتت...؟ حرموها من الطعام..!

ـ لا.. بعد أن تعرضت للضرب والشتائم من والدها وأشقائها تم حبسها في زنزانتها.. الفتاة شعرت بالذنب لما اقترفته بلحظة ضعف أمام رجل بالقانون الإنساني والديني هو زوجها.

ـ ولكنها ليست مذنبة.

ـ الفتاة صغيرة لم تتجاوز العشرين عاماً وتفكيرها والحديث بالخطأ الذي ارتكبته بحق الشرف والعائلة جعل منها ضحية ومذنبة.

أدخلت قلماً لتوسيع قناة عنق الرحم مع القفز الشديد والضرب على البطن بقوة طيلة الليل من دون توقف فأجهضت.

ـ يا إلهي.. الطريقة متعبة لجسد فتاة بهذا العمر والجنين بالشهر الرابع.

ـ أجل يا سمارة متعبة جداً.. يبدو أن عضلات الرحم تقلصت وتمزقت وحصل الإجهاض.. وبعد الإجهاض ماتت مباشرة.

ـ أعتقد أن القلب لديها لم يتحمل فماتت.

ـ قالت لي الأم أن الأمر انتهى بدفنها.

ـ القاتل يا دكتورة هو المجتمع وأسرتها.

ـ القاتل هو المفهوم الخاطئ لغشاء البكارة.. القاتل هو الشرف.

ـ ما بك...!

ـ حزنت لأجلها.

ـ الدموع لن تفيدك كطبيبة نسائية سيمر عليها الكثير من الحالات المشابهة.. عليكِ أن تتحلّي بالقوة النافذة والمتماسكة، بالحكمة والرصانة والهدوء وأن تضعي ضميرك المحور الأساسي في هذه المهنة.

ـ ولكن من دفعها للإجهاض لم ينل عقابه.

ـ لا تقلقي أخبرت الشرطة لتحقق بالأمر، لا يحق لهم حبسها ودفعها لقتل جنينها، ولا يحق لهم إنهاء حياتها بهذه الطريقة وهي قاصر.. القانون يأخذ مجراه وسبيله في هذه القصة.

شعرت بحزن والدتها وتخيّلت المشهد الذي مرّت به جميلة.. القلم الذي أدخلته لتخرج الجنين هو نفسه القلم الذي نكتب به عن الحق والأمل والشرف والظلم واستبداد القلم له معايير كثيرة ودلالات لمن أمسكه وعبرّ من خلاله عما يريد.. إما للخير أو الشر.

ـ القلم خلق ليستودع العلم والتجارب.. هو وسيلة لربط المعارف والتقدير والقضاء من علوم وتراث للحضارات القديمة والالتزام باستعماله للحق والعدل.

ـ هذا موضوع آخر سنتحدث به لاحقاً.

ـ سأترك لك العيادة مع ذكرياتها.

ـ الذكريات مهمة لأنها نافذة مطلّة على الماضي، والماضي تجارب سابقة مفيدة.

خرجت الدكتورة سمارة لتفقد المرضى فأمسكت الدكتورة صباح الجريدة كالعادة لتقرأ الأخبار فقرأت عنواناً لمقالة (المساكنة أم الزواج).

أغلقت الجريدة وهي مصدومة من المقال..

المساكنة تقليد أعمى للغرب وأسلوب جديد للزنى.

وللموضوع بحث ورواية جديدة.

.... الحب والسلام....

.... حلم أوشك على أن....

.... يصبح من المستحيل...

.... عزيزي القارئ....

.... عزيزتي القارئة...

أترك لكم الحكم والقرار

على الشخصيات

المكتوبة بالرواية

Bisan

الفهرس

الفصل الأول **ظالم ومظلوم**	9
الفصل الثاني **ليلة زفاف**	41
الفصل الثالث **عابروا الشرف**	67
الفصل الرابع **رسالة ممزقة**	99
الفصل الخامس **رجل وامرأة**	125